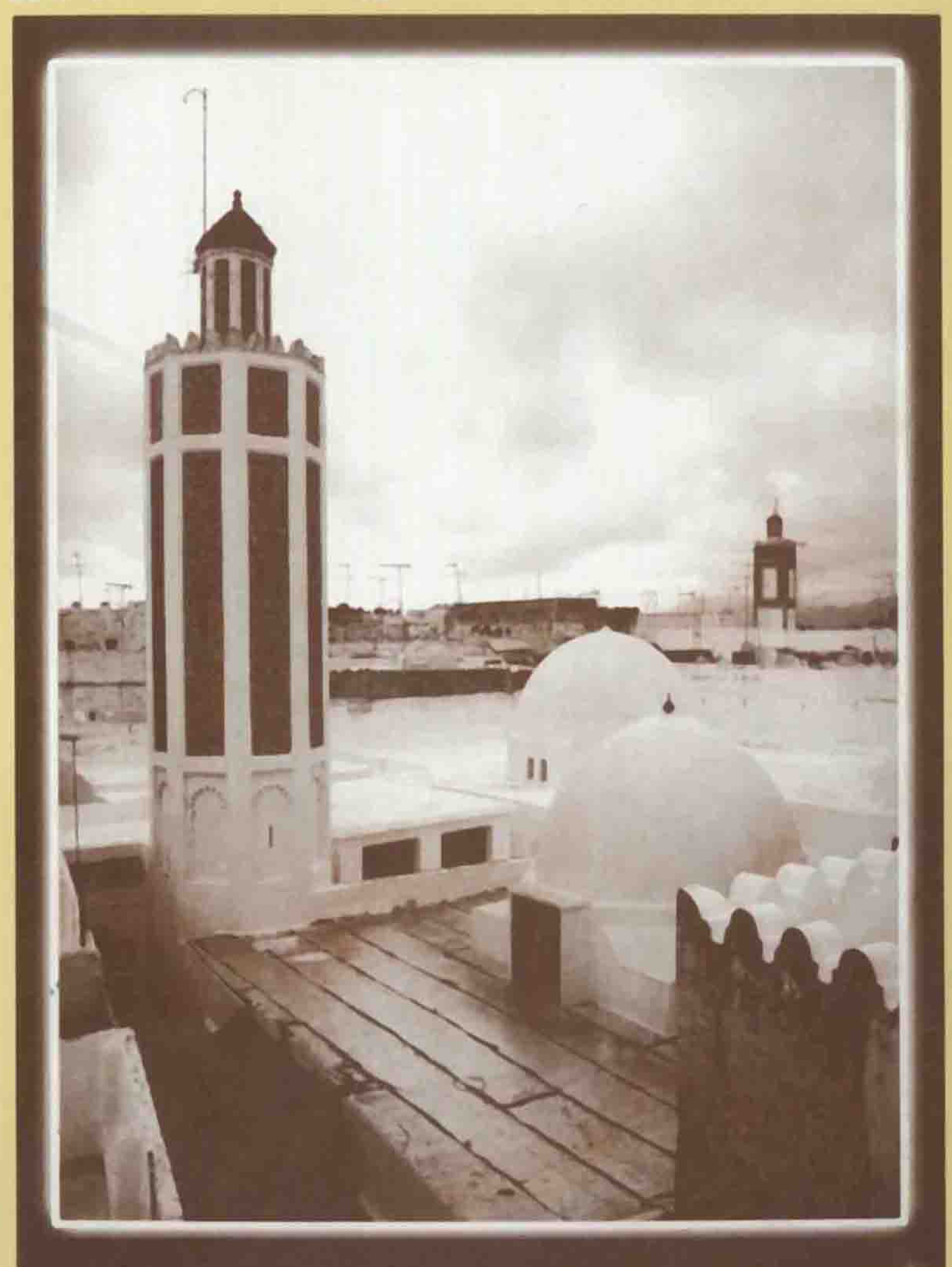
منشورات جمعية تطاون أسمير

تطوان
الحاضرة الأندلسية المغربية



تأليف: جون لوي مييج - امحمد بن عبود
نادية الرزيني

ترجمة: مصطفى غطيس

تطـــوان

الحاضرة الأندلسية المغربية

تأليف: جون لوي ميج

امحمد بن عبود

نادية الرزيني

ترجمة: مصطفى غطيس

الكتاب	تطوان الحاضرة الأندلسية
المؤلفين	جون لوي مييج
	امحمد بن عبود
	نادية الرزيني
ترجمة	مصطفى غطيس
الطبعة	الأولى
الإيداع القانوني	2002 / 0806
الترقيم الدولي	9981 127 - 04 - 3
الإخراج و الطباعة	آلطوبريس 58 آبي جرير الطبري طنجة
الهاتف	039 94 27 74

تقديـــــم

ما أن فرغت من قراءة هذا الكتاب بعد صدوره سنة **1996** باللغة الفرنسية، حتى راودتني فكرة نقله إلى لغة الضاد. فبادرت إلى الاتصال بالمؤلفين الذين استحسنوا الفكرة و شجعوني على إنجاز هذه الترجمة.

و الأستاذ جون لوي مييج غني عن التعريف، فهو من كبار المختصين في تاريخ المغرب الحديث، و تتجلى غزارة علمه و دقة أبحاثه في عشرات المؤلفات التي كتبها بعد إطلاعه في أمهات الخزانات الكبرى الأوربية على المحفوظات الخاصة بالعلاقات مع المغرب في فرنسا و إسبانيا و البرتغال و البلاد الواطئة...وعلى محفوظات المراسي التي لم تكن قد استغلت من قبل في مرسيليا ولفرنة و مالطة... ونفس الشيء بالنسبة للأستاذ امحمد بن عبود الذي يعد من ذوي الإطلاع الواسع في التاريخ الأندلسي و تاريخ حاضرته التي أنجبت أيضا الأستاذة نادية الرزيني صاحبة مجموعة من الأبحاث الميدانية المتميزة في تاريخ الفن...

وساهم هؤلاء جميعا في تأليف هذا الكتاب الذي يتناول تاريخ المدينة منذ تأسيسها إلى نهاية استقلالها في القرن الماضي. وهو تاريخ سياسي و اجتماعي و اقتصادي و كذا تاريخ لفنون المدينة في ميادين العمارة والطرز والحلي... وهو تاريخ حضارة متميزة وحاضرة أصيلة، أندلسية الروح ومغربية الجسد، أثارت اهتمام كل من زارها من الشرق أو الغرب، و عرفت ككل الحواضر الكبرى تأسيسا تتداخل فيه الأسطورة و التاريخ، وازدهارا يعز نظيره، ثم أفل نجمها وصارت أمورها إلى ما صارت إليه...

والكتاب صغير الحجم، غير أن كلام أصحابه جامع، و المصادر التي اعتمدوا عليها باللغات الأجنبية لم تدرس من قبل في معظمها، وهو ما يزيد في أهميته. ولقد حاولت إغناء هذه الترجمة بإحالة القارئ العربي إلى بعض المراجع و المصادر المغربية.
و جلي أن الترجمة كيفما أجاد صاحبها تبقى ناقصة، وهذا ينطبق بطبيعة الحال على عملي هذا. ولقد تفضل الأساتذة: أستاذي الشاعرعبد الواحد

أخريـــف، وذ. عبد العزيـز السـعود، وذ. مصـطفى بنسباع بتنبيهـي إلـى بعـض الـهفوات التي تخللت هذه الترجمة قبل طبعها، فلهم جزيل الشكر.

يا نفس خوضي بحار العلم أو غوصي فالناس من بين معموم ومخصوص
لا شئ فــي هـذه الدنيـــا يحــــاط به إلا إحـــاطة منـقـوص بمنقـــوص

* * *

طنجة، 20 أبريل 2002

مصطفــى غطيس

أصل المدينة

ليس هناك راحل لم يعرب عن بهجته وهو يكتشف تطوان. فالصور تتدفق بغزارة في مخيلة مشاهد المدينة البيضاء و هو يتأملها في زينتها الجبلية لأول مرة. فها هي «جالسة بارتخاء على ضفاف وادي مرتين المزهرة، غير بعيد عن البحر الأبيض المتوسط، وقبالة الأندلس التي صنعت رخاءها»، «متراخية في سريرها وقد افترشت الزهور وأوراق الشجر»، «تلك هي جوهرة المغرب، تلك الحظية»، «صامتة مجهولة حالمة وبرنس الرسول الأبيض على الرأس».

وهذه الصور الأولى التي تتردد أو يعاد نقلها، والتي تصور خمولا يوحي بالراحة واللذة في نفس الوقت، تتعارض دائما مع الأزقة المعتمة الضيقة القذرة، تعارضا يبرزه أسلوب تناقضي. فخارج المدينة هناك بهجة الحدائق وشهرة البساتين، وداخلها فقر الأزقة ومسكنة الديار. وتعكس هذه الصور أفكارا مبتذلة ترمز إلى أندلس الأحلام وإلى حاضر "المغارب المظلم"، وهي أفكار تتجلى فيها تناقضات ثابتة، بين الجنان المضيئة والغبش، وحر السماء وعذوبة الماء، وبياض الحيطان الخالية من الزخرف والتنميقات المعقدة القائمة على الفسيفساء المتعددة الألوان. وفيما وراء كل هذه التنميقات، تنميقات الطبيعة والحذقة، يستشف الغرض المقصود. وثمة طراز معماري مسوّر يستوقف النظر، فالقصور والمباني الدينية المنغلقة على نفسها خفيت في أغلب الأحيان على الراحلين.

وهذا التلاعب بالألفاظ القائم على القضايا ونقائضها الأدبية، وإن كان مصطنعا في حد ذاته، يذكر بحق بالطابعين المتضادين اللذين ستكشفهما عملية الاستقصاء التاريخي والهندسي للمدينة. فهي منفتحة ومنغلقة على نفسها في ذات الوقت؛ منفتحة بعلاقاتها التجارية الهامة وبورها الريفية، ومنطوية على نفسها إذ نجدها مغلقة ترعى تقاليدها، متمردة ومحافظة.

وهي تظهر كالمهد والملاذ، وأرض البدأة والمحافظة. ولابد للوصول إلى قلبها من اجتياز كل الأطواق التي تحميها: مدرج الجبال، وحزام الغوطات والبساتين والجنان، ثم الأسوار. وتذكر هذه القشور المتعاقبة بالمدينة الأم، غرناطة، كما تذكر بفاكهة الرمان التي تغنى بها الشاعر أو بانيل (Théodore Aubanel) «رمانة داخل الأسوار». وعلى المرء أن يكتشف بتبصر، فيما وراء الغُلف، ثمار لبٍّ هذه

الفاكهة المتشابهة فيما بينها والمختلفة عن بعضها في نفس الوقت، مذاقها واحد لكن نكهة كل واحدة منها خاصة ومتميزة.

هي ذي تطوان، حاضرة أندلسية في الأرض المغربية، محفوظة بشكل يثير الإعجاب داخل المدينة الحديثة.

ومن المدن ما عرفت عملية تأسيسها جلالا وكأنها تنبيء منذ البداية بمصير عظيم، وأخرى لاتصل أخبارها إلا عبر ضباب الأساطير أو عتمة القرون الغابرة قبل أن يقذف بها التاريخ على مسرح الأحداث. وهكذا فإن تاريخ تطوان مرتبط أشد مايكون الارتباط بالعصر الأندلسي، ببذخه ومآسيه.

صحيح أنه ابتداء من سنة 710 وخلال القرون اللاحقة، كانت قد ظهرت من حين لآخر في النصوص العربية والأوربية مدينة صغيرة مسماة بتطوان. وبعض هذه النصوص يؤكد قدسيتها التي تشهد بها أضرحة القرنين الثاني عشر والثالث عشر التي ما لبثت أن أصبحت مصليات ومزارات[1]؛ والبعض الآخر، من جنوة وبيزة أو أمالفي (Amalfi)، بل حتى من مرسيليا، يثبت بعض أنشطة المدينة البحرية. ولكن مرفأ سبتة بل وحتى مرفأ القصر الصغير غطيا على البلدة الصغيرة.

هذا وإذا كانت تمودة الرومانية تقع في السهل[2]، فإن تطوان الجديدة تنتصب فوق منحدر جبل درسة، بعيدة شيئا ما عن البحر[3]. وبعد توطيدها في بداية القرن الرابع عشر، فإن المدينة الصغيرة خربت ربما في 1400/1399 ، أو في 1437[4]، وربما لم تخرب البتة وإنما اضمحلت بعد ضعفها فقط، وكأنها خنقت من لدن منافساتها. وإنه قرن غامض يترك انطباعا ـ مبالغا فيه دون شك ـ يشوبه الهجر والخراب ، إنه على كل حال قرن النسيان.

وبعد المصاعب التي عرفتها، وبعد هجر مملكة غرناطة التي تم الاستيلاء عليها سنة 1492، ستنبعث حاضرة تطوان وستبدأ حياتها الرغيدة؛ وستكون مدينة بكل شيء تقريبا، في بدايتها الجديدة وخلال عقودها الأولى، للفردوس الأندلسي المفقود. فهي بنت غرناطة وأختها الفاترة، وهي بالنظر إلى ما توارثته من إراث حقيقي وأسطوري، القدس الصغرى وأخت فاس، كما ستصبح تطوان قلب قوى الموريسكيين والمدجنين واليهود السفرديين والأندلسيين المغاربة وحنينهم إلى الوطن.

وهكذا ففي أعماق الأرض المغربية، عرف موضع تطوان، هذا المغرس الخارق الحظ الذي غرزت فيه الحضارة الأندلسية، صدمات وكسرات واستمرار تاريخ ملؤه الصخب والغيظ، وكذا الكياسة والظرف والأصالة الراسخة، وهو أيضا تاريخ يعكس تأثيرات مختلفة.

ومن الصعب تقديم مجمل لتاريخ مدينة غنية ومعقدة ومتناقضة إلى هذا القدر. وبدلا من الحديث عن روح هذا المكان ينبغي التكلم عن أرواح مواضعه؛ فلقد وجدت

عدة أرواح مواضع في تطوان، كما اتخذت نفس الأحاسيس فيها أشكالا مختلفة خلال نفس الفترة التاريخية، و أحيانا عوضت هذه الأحاسيس بإحساسات أخرى. ويبقى بعث مواضع تطوان من خلال تاريخها عملا مشوقا حقا. ويعتبر غنى المدينة الأثري وجمال موضعها ونواحيها، وسحر تاريخها السياسي، وكثافة أنشطتها الاقتصادية، وأصالة مساهمتها في ميدان الثقافة والفكر، وانفتاحها وآتصالها بتقاليد وثقافات مختلفة، كلها عوامل تضافرت لتشكيل سماتها الأساسية. غير أن عنصرها البشري، على صعيد الفرد والجماعة، هو الذي ينفخ من روحه في تاريخ تطوان. ويبقى هذا التاريخ أساسا تاريخ التطواني.

ويمثل المجتمع التطواني كيانا اجتماعيا تمكن من الحفاظ على سماته الأساسية، مغنيا إياها باتصالاته مع العالم الخارجي. ومن الممكن أن يعيش المرء في تطوان خمسة قرون من التاريخ في اليوم الواحد. وهكذا يمكن بفضل صغر مساحة المدينة، زيارة قصبة سيدي المنظري التي ترجع إلى نهاية القرن الخامس عشر، وعدة مساجد ترجع إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر، وقصورا ودورا تقليدية ترجع إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ويمكننا كذلك زيارة الأحياء الأكثر قدما كحي العيون (بداية القرن السادس عشر)، وأحياء أخرى ترجع إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر أو إلى القرن التاسع عشر. وهناك علاقة بين توزيع الأحياء والمكانة الاجتماعية. فابتداء من القرن التاسع عشر مثلا، أصبح حي العيون حيا شعبيا، بينما اعتبرت حومة جامع الكبير من بين الحومات الأكثر رقيا. وحافظت أحياء أخرى كحي المطامر على مكانتها بالرغم من قدمها. ولازال تعدد الثقافات التي ساهمت بها مكونات المجتمع التطواني حيا في المدينة العتيقة، وخاصة في الحياة اليومية لبعض العائلات التقليدية التي لازال بعضها يعيش في دور أجداده.

وإنها خمسة قرون من التاريخ، بدأت في نهاية القرن الخامس عشر بإعادة تعمير سيدي المنظري وثلة من المهاجرين الغرناطيين للمدينة، خمسة قرون صيغت خلالها رموز المدينة المادية والنفسانية والروحية، وظلت محفورة في أعماق الذاكرة الجماعية لسكانها، وتأثيرها في المجتمع التطواني الحديث لازال عميقا. وبعض الأجانب لايتفهمون التطوانيين لأنهم يجهلون ماضيهم وماضي مدينتهم وهويتهم. ولذلك يبقى التاريخ أساسيا ليس لفهم ماضي التطوانيين فحسب، بل ولفهم حاضرهم وبالتالي مستقبلهم؛ ذلك أن روح المدينة، بل أرواحها، لاتزال حية.

التأسيس الأندلسي لتطوان

إن الأمر يتعلق بانبعاث حقيقي أكثر منه تجديد، وهو انبعاث ارتبطت به الظرفية الجيوسياسية أشد الارتباط.

ولقد كان حوض وادي مرتين في أقصى غرب الريف معزولا بعد استيلاء البرتغاليين [وليس الإسبان كما ورد في النص الأصلي] على كل من سبتة سنة 1415[5]، والقصر الصغير سنة 1458[6]، وطنجة[7] وأصيلا سنة 1471[8].

وتجسدت مقاومة الاحتلال الإيبيري في داخل البلاد حول الشاون، المدينة الدولة. وتحتل بلدة تطوان موقعا دفاعيا، فهي محمية بحاجزين طبيعيين وهما جبل درسة وجبل غورغيز. وهي تنحدر نحو البحر المتوسط عبر سهلي بني معدان ومرتيل، ولكنها محمية من جهة الجنوب الغربي بتلال جبالة[9].

سيدي المنظري والفرسان الغرناطيون

في هذه المنازل المفتوحة والمحمية في نفس الوقت، استقر المؤسسون الأندلسيون الجدد. وستجد ثلة المدجنين الأوائل الفارين من الغزو، والذين ركبوا البحر انطلاقا من روندة (Ronda) وباثة (Baza) وموطريل (Motril)، زعيما في شخص أبي الحسن علي المنظري الذي تلقاه زعيم الشاون أبي الحسن علي بن راشد بكل ترحاب[10]. وكانت هجرة الغرناطيين إلى تطوان عند بدء انبعاث المدينة، السبب والضامن الرئيسي ـ في الوقت نفسه ـ لتطورها واستمرارها. وغرناطة كلية الوجود في الروايات السابقة والتالية لإعادة بناء سيدي المنظري لتطوان، وهو وجود تاريخي وأسطوري[11].

ومن الأمور المسلم بها عامة أن سيدي المنظري وفرسانه الغرناطيين أعادوا بناء المدينة بعد هجرتهم[12] وتتذكر المصادر البرتغالية التي درسها غييرمو غوثالبيس بوسطو (Guillermo Gazalbes Busto) المنظري كقائد قلعة بينيار (Piñar) في مملكة بني نصر. وتصف روايات أخرى مواجهاته العسكرية مع البرتغاليين والإسبان. وقد يكون حقده على الملكين الكاثوليكيين اللذين احتلا مسقط رأسه، العامل الرئيسي في عملية استنفار قواته العسكرية. وظل حلم العودة إلى

مسقط الرأس يراود المهاجرين الأندلسيين إلى المغرب حيث كانوا يعتبرون إقامتهم مؤقتة.

ولقد اتخذت بعض النصوص التاريخية البرتغالية المتعلقة بالمنظري طابعا خياليا، وروي في بعضها أن امرأة المنظري الأولى فاطمة، وهي من عائلة ملكية أندلسية، قد تكون وقعت أسيرة في يد الكونت دي طينديا (de Tendilla) خلال سفرها من غرناطة إلى تطوان حيث كانت ستتزوج للمنظري. وقد يكون الكونت استصحب أسيرته إلى قلعة ألكالا لا ريال (Alcalá la Real) ، وبعد توسط فارس أراغوني الأصل يدعى دون فرانثيسكو دي ثونييغا (Don Francisco de Zúñiga)، قد يكون الكونت دي طينديا (de Tendilla) أطلق سراح أسيرته مقدما لها هدايا الزفاف. وهكذا قد يكون العدو تصرف تصرفا نبيلا تجاه الأندلسيين المطرودين، وقد يكون الشرف انتصر على المصلحة الشخصية[13].

وهناك حدث آخر عجيب ورد في مصدر برتغالي، وقد بلغت غرابته حد اللامنطق. ومفاده أن سيدي المنظري قد يكون طلب من ملك البرتغال نقله إلى تونس عن طريق البحر على أن يمنحه مقابل ذلك مدينة تطوان والناحية المجاورة لها[14]

وتفرض شخصية المنظري ـ المؤسس ـ البارزة نفسها كشخصية رمزية وحامية. ولقد ظلت شخصيته غامضة، وامتزج بعدها التاريخي ببعدها الأسطوري واختلطا. ولاتسمح غوامض تاريخ المنظري وتأويلاته المختلفة بتكوين فكرة دقيقة عن عملياته العسكرية؛ ويظل اسمه مرتبطا بمطاحن تطوان، وبإحدى أزقتها، بل وحتى بمقهى من مقاهيها. غير أنه إلى جانب هذه الشعبية وبعدها الأسطوري، توجد بعض البراهين القاطعة على وجوده، منها قبره وقبور المجاهدين الذين صحبوه والتي تم تعرفها في مقبرة المسلمين بالمدينة[15] وإذا كان قبر المنظري قد حول إلى ضريح، فإن رواميس رفاقه توجد في حالة يرثى لها من التهدم والإهمال. وإن حضور غرناطة جلي في قبور المجاهدين الغرناطيين هذه، وبالتالي فلقد كانت هجرة الغرناطيين إلى تطوان هجرة حقيقية سبقت إعادة بناء المدينة واستمرت بعد إعادة تأسيسها.

ولقد ارتبط وصول الكبات الأندلسية إلى تطوان ارتباطا مباشرا بسقوط غرناطة في أيدي الملكين الكاثوليكيين[16] وكان القرب الجغرافي والاستقبال الحار الذي خصصه المهاجرون الأوائل للقادمين الجدد، يغري بالاستقرار في مدينة كانت تزدهر ازدهارا يوازي سرعة تكاثر سكانها. ولم تشكل هذه الكبات ظاهرة منفردة أو خاصة، بل إنها كانت تشكل جزءا من هجرات الموريسكيين من غرناطة إلى البلدان الأخرى المتوسطية، المسيحية منها والمسلمة بصفة خاصة[17] وبخلاف الهجرة إلى البلاد الخاضعة للأتراك ـ وخاصة إلى تونس ــ التي أحكمت السلطات العثمانية تنظيمها، فإن

المهاجرين الأندلسيين إلى المغرب كانوا مضطرين إلى إدارة شؤونهم بأنفسهم نظرا للفراغ السياسي الذي كانت تعرفه البلاد من جراء سقوط الدولة الوطاسية. وكان المهاجرون الأندلسيون يستقبلون في المدن الكبرى كفاس، كما استقبلوا كذلك في تطوان والشاون وسلا. وكانت تطوان المدينة التي استقبلت أكبر عدد من هؤلاء المهاجرين الذين أعادوا بناءها وأنموها أيضا كما تشهد على ذلك أحياؤها الأندلسية. وبفضل موقعها الجغرافي، استقبلت تطوان كذلك مهاجرين أندلسيين كانوا قاصدين مدنا ونواحي أخرى من المغرب. ولعل أبرز مثل على ذلك مثل جماعة بأسرها، وهي جماعة الهورناتشيين التي مرت بتطوان قبل أن تتابع طريقها نحو الرباط حيث استقرت بصفة نهائية. ولقد لعبت الشاون دورا مماثلا.

العصر الغامض من تاريخ المدينة

واستفاد المهاجرون من قرب شبه الجزيرة الإيبيرية من المغرب، وهو القرب الذي كان يسهل فرارهم، ولكنه أيضا قرب كان من شأنه أن يعرضهم للخطر في حالة امتداد الغزو المسيحي في الأراضي المغربية. فتطوان لاتبعد عن سبتة إلا بأربعين كيلومترا، وكل المدن الساحلية في شمال غرب المغرب كانت واقعة تحت السيطرة البرتغالية أو الإسبانية. وهكذا كانت المدينة تبنى في جو سادته روح المقاومة؛ فالخطر الخارجي كان مسيطرا على النفوس، لكنه لم يكن وحيدا بل لازمته المخاوف التي ولَّدها عداء الأرياف المجاورة. ولهذه الاعتبارات الاستراتيجية تم اختيار موضع المدينة. ولقد بنيت تطوان فوق مجموعة من العيون حتى تضمن اكتفاءها الذاتي من الماء، ومن هذا الاسم استمد حي العيون داخل أسوار المدينة اسمه[18]. وتبرز الخصائص الأندلسية بوضوح في هندسة البناء العسكري للمدينة التي صمّمت على شكل قلعة منذ تأسيسها. وتعتبر أسوار المدينة التي لازالت بقاياها قائمة أحسن دليل على ذلك، وتتميز هذه الأسوار بكبر حجمها وسموكها واتساع عرضها وانتظام أبراجها الصغيرة. وتطوان مرئية من خارج الأسوار، ما هي إلا قلعة كان هدفها الأصلي حماية المهاجرين الأندلسيين الذين أسسوها[19] غير أن داخل المدينة يعكس تطور البناء المدني الأندلسي في أوجه.

ولازالت المدينة العتيقة في تطوان تحتفظ دائما بالملامح الرئيسية للمدينة التي أسسها سيدي المنظري الغرناطي. وما ينبغي معاينته على الأخص، هو ذلك التمازج بين الخصائص الهندسية العسكرية والحضرية. وتعكس هندسة بناء المدينة إرادة خلق حياة حضرية جد متمدنة، والدفاع عن أصحابها بفعالية في نفس الوقت.

وكانت سلطة آل المنظري تتوطد، فبعد وفاة سيدي المنظري سنة 1511، خلفه حفيده[20] الذي تزوج بالسّت الحرة (بنت أبي الحسن علي بن موسى بن راشد

قـائد الشـاون)، والتي حكمت بدورها المـدينة من سنة 1537 إلى سنة 1542[21].
هاهي وقد حدّدت في ظرف بضعة عقود، بعض السمات التي ستسيطر على تاريخ تطوان والتي ستجعل منها إنشاء أصيلا بقيت خصائصه على حالها إلى اليوم. وإلى السمات التي ميزت هذا التاريخ كتأثير الحضارة الأندلسية السائد في المدينة، والعلاقات الملتبسة التي ربطتها بأوربا المجاورة والتي تداخل فيها العداء والحنين إلى الوطن، وضعف الروابط مع السلطة المركزية، يضاف الدور الحاسم الذي لعبته "العائلات الحاكمة" التي جعلت من المدينة الدولة استثناء سياسيا. فبعد آل المنظري حكمتها عائلات النقسيس والريفي وأشعاش، وستفرض كل عائلة من هذه العائلات الحاكمة شبه المستقلة نفسها خلال جيلين أو ثلاثة أجيال، وستطبع المدينة بطابعها.

ولقد استمر تدفق المهاجرين الأندلسيين إلى المغرب، لكنه عرف بعض الفتور أحيانا ونشط أحيانا أخرى نتيجة الإهانات والقرارات الملكية التي اتخذت في إسبانيا. وأتت هذه الكبات بمهاجرين متشابهين ومختلفين عن بعضهم في نفس الوقت. فهم متشابهون بأصلهم الأندلسي ودينهم الإسلامي، ومختلفون من حيث طبقاتهم الإجتماعية والمناطق التي قدموا منها وتاريخ وصولهم بصفة خاصة. ومن بين المراحل الثلاث الأكثر أهمية لهذه الهجرة، كانت الكبة الأخيرة التي ارتبطت بقرار فيليب الثاني القاضي بالطرد النهائي للموريسكيين في بداية القرن السابع عشر، قد استهدفت سكانا أقاموا زمنا طويلا في مواطنهم الأصلية التي احتلها المسيحيون[22] وكان هؤلاء المهاجرون المتأثرون بالمجتمع السائد الذي عاشوا فيه منذ الأسلاف الأوائل قد وجدوا صعوبة أكثر للتكيف مع المجتمع المغربي المسلم.إلا أن هذه الصعوبات كانت أقل في تطوان (كما في الشاون). وكان الإندماج الإجتماعي للمهاجرين سهلا نسبيا نظرا أولا لأواصر القرابة التي كانت تربطهم بالسكان المستقبلين، ونظرا أيضا للتشابه بين الوطن الأصلي وبلد الاستيطان، الشيء الذي لم يتوفر في مناطق أخرى من المغرب (بالنسبة لهورناتشيي الرباط مثلا). وهناك فرق جلي آخر بين المهاجرين الأندلسيين إلى تطوان وأولئك الذين هاجروا نحو البلاد القاصية. فبينما اجتث هؤلاء من ماضيهم الذي لم يعد يحيا إلا في ذاكرتهم، أبى المهاجرون الأندلسيون إلى تطوان والشاون إلا أن يواصلوا جهادهم ضد البرتغاليين والإسبان طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر. ونظم المهاجرون إلى المغرب أنفسهم ليس فقط قصد الدفا ع، بل ولمهاجمة الإيبيريين، وخاصة في البحر المتوسط. ولقد كانت تطوان مدينة الجهاد البحري، وكان مجاهدو سلا الذائعي الصيت قد أنسوا مفاخر التطوانيين التي لم تكن أقل أهمية من عمليات السلاويين البحرية، وذلك منذ القرن الخامس عشر. وإن حالة تطوان تطلعنا على الدور الذي قد يكون لعبه المهاجرون الأندلسيون في تطور المجتمع الذي بنوه، محافظين على تقاليدهم، ولكن آخذين كذلك بتقاليد الأوساط التي استقبلتهم.

وإن فقر المصادر المكتوبة وضعف الروايات الشفوية المتأثرة جدا بالبعد الأسطوري، وصعوبة الوصول إلى الوثائق الخاصة أو ذخائر المكتبات العامة غير المحصية، وتقصير الأبحاث الأثرية، وقلة الاعتناء الذي أولي حتى أيامنا هذه للنشاط الاقتصادي والبحري، كل ذلك يجعل حتى الآن من أحداث القرن السادس عشر وبداية السابع عشر أحداثاً لم تُسْتَجْلَ بعدُ غوامضها. وحتى لحمة الأحداث تتوارى أحيانا في روايات غامضة ومتناقضة. بيد أن هناك بعض الأحداث الأساسية التي تبرز في هذا التاريخ، كازدهار الجهاد البحري ما بين 1550 و 1570، والهجمات الإسبانية (1565)، والعلاقات العسيرة مع القبائل (1570-1580). إلا أنه توجد بعض الآثار الهامة التي ترجع إلى هذا العصر الغامض من تاريخ المدينة.

المدينة المنظرية

الأبواب والقصبة

يصف مخطوط مؤلف فاسي يرجع إلى القرن السابع عشر المدينة التي أسسها الأندلسيون. وهي مدينة محصنة ومحاطة بربض مزدوج ثم بحفائر فيما وراء الأسوار وقد فتحت فيها ثلاثة أبواب. وتشرف على المدينة قصبة من جهة الجنوب الغربي(23)

ويوجد موضع تطوان الأول في حي المدينة الحديثة الحالية المعروف بإسم "البلد"(24)، وهو اسم جنس ينعت التأسيس الأولي. ومن التحصينات الأصلية ما زالت الأسوار الخارجية وثلاثة أبراج من القصبة قائمة على امتداد مايعرف اليوم بسوق الحوت والغرسة الكبيرة وزنقة القزدارين. وهناك آثار أخرى يمكن العثور عليها على امتداد نطاق المدينة الشمالي حول باب المقابر. وبين هذين الموضعين لازالت توجد حنيّة في الرّبض(25) وتمكننا الدراسة اللغوية لأصل أسماء الأزقة من الوقوف على آثار أخرى لأسوار القرن الخامس عشر. وهكذا فإن إسم زنقة أحفير ينطبق على الحفائر التي حفرت خارج أسوار المدينة في اتجاه فاس. وكانت بنانة "الغرسة الكبيرة" فيما مضى بستانا يقع خارج الأسوار(26)

ولقد اندثرت الأبواب الثلاثة الأصلية. فباب المقابر وإن ظل قائما فقد ضاع شكله الأولي؛ ويذكر المنحنى المزدوج في أعلى سلوقية سيدي السعيدي دون شك بموضع الباب الثاني للمدينة، أما موضع الباب الثالث فلم يعثر له على أثر، ومن المرجح أنه كان يوجد بالقرب من القصبة(27) ويوجد في حالة جيدة باب آخر يصل القصبة بالمدينة، ونظرا لقربه من المشور أو قصر القرن السادس عشر، فما زال يعرف إلى يومنا هذا بباب المشور بالرغم من وجود المشور الحديث والمعروف أكثر لدى الناس في مكان آخر. وتتكون باب المشور من جزئين وقباب قائمة على مثلثات كروية تتخلل الأقواس الحاملة للقبة. ولقد زخرفت الواجهات الخارجية بالأشكال الهندسية المذكورة، وبالآجر بنيت العقود بدقة، وتحت القباب جوِّفت في سمك الحيطان المشاكي التي كانت تحمي الحراس. ويشبه هذا الباب من حيث التصميم وطريقة الصنع الأبواب الناصرية في غرناطة وباب قصبة الحمراء.

وكانت القصبة، وهي مركز الحكم والقيادة العسكرية، تقع جنوب غرب مدينة

المنظري وليس في قلبها كما هو الحال في المدينة الإسبانية المسيحية[28]. وتأثير الفن المعماري الإسلامي جلي في موضع القصبة. وتتكون واجهتها الجنوبية الغربية، والتي لازالت في حالة جيدة، من ثلاثة حصون وجزء من طريق الجولات الدورية التفقدية. وكان سور المدينة يمتد في اتجاه الشمال مشرفا على سوق الحوت الحديث والغرسة الكبيرة. وتختلف أشكال أبراج القصبة مابين المستطيلة الشكل كالبرجين الخارجيين، والمضلعة الشكل كالبرج الأوسط وقد بنيت كل هذه الأبراج بطبقات متعاقبة من الدبش والآجر وتعلوها شرفات، بينما نجد البرج الداخلي وقد نمق بحنايا خادعة على شكل أهلة من الآجر.

ويمكن مقارنة بقايا سور قصبة تطوان بالتحصينات الإسبانية ذات النمط المدجّن بتعاقب الدبش والآجر في الجزء الأسفل من أسوارها، وتنميقها بالطين المدكوك خلافا للتنميق بالحجر المنقوش، وبروجها المضلعة الشكل، ونوافذها الهلالية الخادعة، وشرفاتها. وكل هذه المميزات توجد في القلاع القشتالية ذات النمط المدجن التي ترجع إلى نفس الفترة، كقلاع ألمرية (Almeria) وكوكا (Coca) في سيغوفية (Segovia)، ومغيدة (Magueda) في طليطلة (Toledo)، وإن كانت التحصينات التي أقامتها الممالك الأعظم شأنا أكثر جزالة وقوة وكمالا من المنشآت الدفاعية المشيدة في ذلك الثغر الصغير الذي جسّد تطوان ذلك العهد.

وكان يوجد داخل القصبة مسجد يعرف اليوم بجامع القصبة، وقد أعيد بناؤه على امتداد القرنين السابع عشر والثامن عشر. كما أعيد تشييد دار الإمارة أو دار السكنى، –مقر الحاكم– التي كانت تحد بجنوب المسجد. وبالرغم من اندثار أشكال القصر الأصلية، فإن موضعه المجاور مباشرة لجنوب المسجد يعكس تقليدا إسلاميا قديما يرجع إلى العصر الأموي في الشرق الإسلامي. والجزء الوحيد من قصر المنظري الذي حافظ على شكله الأولي هو الحمام الصغير الخاص الواقع في الغرب. وهو يتكون من قبتين مرفوعتين فوق أعقاد مروحية الشكل.

وكان جورج مارسي (Georges Marçais) في دراسته القيمة حول فن العمارة في الغرب الإسلامي قد اعتبر أن لاوجود في المغرب لأطلال ترجع إلى الفترة الممتدة ما بين 1335 و 1557، أي نهاية العصر المريني وفترة خلو العرش الوطاسي. بيد أن آثار تطوان مكنت من سدّ هذه الثغرة.

وباستثناء المطامير وحمام عمومي، فقليل من بنايات المدينة الأخرى التي ترجع إلى نهاية القرن السادس عشر ما زال قائما. غير أنه يمكننا تكوين فكرة عن تصميم المدينة الأولي انطلاقا من حي البلد ودراسة أسماء مواضعه لغويا وتاريخيا. وكان المهاجرون الأندلسيون إلى تطوان قد بنوا فعلا ضاحية جديدة، بينما استقر المهاجرون الآخرون الذين قصدوا مدنا أخرى من المغرب كفاس وسلا والشاون في أحياء خاصة سميت بعد ذلك بالأحياء الأندلسية، كحي ريف الأندلس في الشاون مثلا. ولم تعرف

تطوان هذه الحالة بحيث لم يوجد فيها حي خاص بالأندلسيين، وهو مايدعم الرأي القائل بأنه لم يكن هناك سكان سبق وجودهم بناء المدينة الجديدة. فتطوان أندلسية بكل معنى الكلمة، وجوهرها الحضاري أندلسي محض.

وكان هناك حي منفصل عن المدينة الأولية يأوي الطائفة اليهودية التي كان عدد أفرادها مرتفع نسبيا منذ العقود الأولى. وكان هذا الحي يقع في الزاوية الشمالية الغربية من المدينة، وما زال أثره حيا في إسم زنقة "الملاح البالي" ولقد سكن اليهود هذا الحي إلى أن هدمته عساكر السلطان مولاي يزيد سنة 1790. وسيرحل الملاح بعيد ذلك إلى موضعه الحالي.

وكل مساجد حي البلد، كجامع "بن ناصر وجامع "الرابطة"، هي مساجد صغيرة لم تحتفظ إلا بقليل من آثار هذه الفترة. وميزة هذه المساجد الأصلية هي بساطة بناء مآذنها وصغر حجمها وقد بنيت بالآجر في عهد لم تكن الدور المجاورة تعلوها. وأقدم مئذنة يبدو أنها احتفظت بزخرفتها الأصلية، هي مئذنة جامع "الرزيني الذي بنته سنة 1591 إحدى العائلات الأندلسية التي ظهرت في تطوان منذ نهاية القرن الخامس عشر أو بداية القرن السادس عشر. وباستثناء هذه الأمثلة فإن دور أو مساجد هذه الفترة قد أعيد بناؤها كلها. وهكذا فإننا لانجد أي أثر آخر لهندسة بناء هذه الفترة، لكن تخطيط الأزقة الحالي بردوبه وحدائقه الصغيرة يمثل على الأرجح تصميم البلد في القرن السادس عشر. وأكثر المناطق عمرانا وأكثرها سكانا في المدينة المحصنة، وهي المناطق التي يوجد فيها أكبر عدد من الأزقة المسقفة (السوابيط ج الساباط)، توجد في الأحياء السكنية من البلد كحومة المطامر. وإلى هذه الفترة يرجع ازدهار صناعة الجلد التي اشتهرت بها تطوان؛ وتتجمع المدابغ في الزاوية الشمالية الغربية من المدينة الأصلية، فيما وراء باب المقابر. وتذكرنا أسماء الأزقة بأنشطة المدينة الأخرى كالصياغين والنجارين والعطارين أو المستشفى (المارسطان، وهو اسم استمد أصله من الكلمة الفارسية المارستان).

وحمام سيدي المنظري هو حمام عمومي ينسب بناؤه إلى أبي الحسن المنظري، وهو ما زال يستعمل إلى يومنا هذا، ويمكن مقارنته بحمامات العصر الوسيط في الأندلس. ويوجد هذا النمط من البناء في غرناطة ورونده (Ronda) وفاس أو الرباط. وهو يتكون من أربعة أجزاء مميِّزة وهي مستودع الملابس أو المدخل، ويليه الحمام البارد، ثم الحمام السّخين فالحمام السُّخْن. وكان المدخل مجهزا بدكك للاستراحة وبفناء صغير وقد سقف بقبة.

الزنزانات

أشهر هذه الزنزانات ـ وهي في الواقع من بين آثار مدينة القرن السادس عشر التي لايعرف عنها الشيء الكثير ـ هي المطامير (أو الماثموراس بالإسبانية

mazmorras). ولقد أسست تطوان فوق أرض كلسية توجد تحتها تجاويف متعددة تشكل شبكة من الممرات النفقية تقطع المدينة من الغرب إلى الشرق. وكان حوالي ثلاثة آلاف عبد مسيحي الذين ساهموا في بناء تطوان خلال القرن السادس عشر يحبسون ليلا في هذه الدياميس. ولازال هذا الحبس موجودا اليوم تحت "البلد ، وله منفذان معروفان في حومة المطامر الحالية التي اشتق اسمها من السجن المذكور. وكانت هذه الأنفاق قد درست سنة 1921، إلا أن منافذها سدّت بعد ذلك مع الأسف. وكان السجن التحأرضي قد أعد في التجاويف الكلسية التي قسمتها أسوار من الآجر إلى حجر. وكانت الحجرة الأحسن إعدادا تحوي بيعة صغيرة، شكلها ثلاثي الفصوص. وتخللت جدار صدر البيعة وجانبا المصلى حنايا نصف دائرية، بينما نمّقت المذابح ببلاطات إسبانية تمتد تواريخ صنعها من نهاية القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر. وكان آباء الكنيسة الفادون الإسبان يتلون فيها القداس للعبيد، وفي نهاية القرن السادس عشر حصل الرهبان الفرانسيسكان على ترخيص لإقامة مستشفى في الحبس المذكور.

ولقد استمر استعمال هذه الدياميس خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. وحسب إيمانويل دارانطي (Emmanuel d'Arante) الذي كان محبوسا فيها في منتصف القرن الثامن عشر (1740-1741)، فإنها كانت تأوي آنذاك مئة وسبعين عبدا إسبانيا وبرتغاليا كانوا ينتظرون فداءهم من الأسر. ولقد وجد دارانطي (d'Arante) ظروف المطامير أسوء حالا من تلك التي عاشها في سجن الجزائر الشهير حيث حبس من قبل. أما جيرمان مويط (Germain Mouette) الذي تعرف عليها، فإنه يتحدث عن هذه الدياميس وكأنها قبور للأسرى. ولقد ترك رحالة العصر وصفا لهذه "المطامير ، نذكر منهم الأب اليسوعي كونطريراس (Contreras) الذي زارها سنة 1539 وأقام القداس في البيعة التحأرضية، والمبشرون البرتغاليون إيغناثيو فوغادو (Ignacio Vogado) وخوان نونييث باريّطو (Juan Nuñez Barreto) أو لويس إيغناثيو غوثالبيس دا كاميرا (Luis Ignacio Goçables da Camera) سنة 1548. ولقد وصلتنا صور هذه السراديب التي لايمكن رؤيتها اليوم، وترجع هذه الصور إلى كشوف العشرينيات من هذا القرن، وهي محفوظة اليوم في قسم الصور الشمسية في المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان. وإذا كانت "المطامير" مقبرة حقيقية للأحياء، فلقد كانت توجد في تطوان أيضا مقبرة مسيحية، ولكن للموتى، مسماة كابوبينو (Cabollino).

بقايا الثقافة الأندلسية

ويروى أن المهاجرين الأندلسيين قد احتفظوا بسندات الملكية وكذا بمفاتيح دورهم التي أرغموا على تركها في إسبانيا. وإذا كان في هذا الزعم قدر كبير من الأساطير،

فما لايمكن إنكاره هو ذلك الاستمرار العجيب لذريات أقدم العائلات الأندلسية (الأعيان الأندلسيون) وحفاظها المتميز على عاداتها وتقاليدها، ذلك الحفاظ المقرون بالحنين الدائم إلى الأندلس ؛ وهي سمات بارزة ميزت الشعوب التي أفقدت أعزَّ ماليديها[29]. وتبقى تطوان مع فاس والرباط ـ سلا معقلا من أشد المعاقل تحصينا للثقافة الأندلسية في المغرب.

غير أنه إذا كان الإرث الأندلسي يتجلى بوضوح في عدة جوانب من الحياة اليومية (الطبخ والموسيقى)، فإن ما وصلنا من الثقافة المادية يعتبر ضئيلا. وربما وجدت بعض هذه الآثار الملموسة في المكتبات، الخاصة منها على وجه الخصوص، حيث تحفظ مخطوطات غرناطة القرون الوسطى ومدن أندلسية أخرى. وفي الماضي كانت توجد في المدينة أسياف مأثورة خاصة عند عائلة الخطيب قبل أن يستولي عليها الإسبان سنة 1860.

ولقد مكنت العزلة النسبية لمدن مغرب ما قبل الحماية من الحفاظ على العناصر الثقافية الحضرية والجهوية الخاصة وتمييزها. وهكذا فإن اللهجة التقليدية وطريقة النطق والزّي والتقاليد الإجتماعية التطوانية لاتزال متميزة. وتلبس نساء قبائل جبالة وناحية تطوان لباسا يشبه لباس النساء المدجنات ونساء غرناطة، بقبعاتهن الشاسعة الحواشي وردائهن القصير ولفائف سيقانهن. ويمكن أن نعاين الزخارف النصرية والمدجنة الأصل في الحلي والمطرزات التطوانية التقليدية. ومن بين القلائد المألوفة في تطوان، هناك قلادة لازالت تستعمل في زينة العروس، وهي تتكون من عدة سموط من اللؤلؤ تتخللها كريّات من الذهب؛ وتشبه هذه القلادة إلى حد كبير بعض الحلي النصرية التي لازالت محفوظة، ولقد اشتق اسمها التطواني (الماصّو) مباشرة من الإسم القشتالي "ماثو (mazo).

وتعتبر تطوان أيضا المدينة الوحيدة في شمال إفريقيا حيث لازالت المطرّزات تنمنم بتواشي نصرية ومدجنة. ويجمع النمط المسمى بنمط "الشاون" بين السَّردات المنبسطة والطَّرز وإطباقات من الجلد والمخمل منمنمة بخيوط من الذهب والفضة، وتتعاقب فيه أشرطة ملونة واسعة وزهور رسمت بطريقة تزيينية داخل مسدسات ومعيّنات متكررة، وتتوسط زوايا المطرّز نجمة ثمانية. وهذه الأشكال لايمكن أن تقارن إلا بالطرز الإسباني الإسلامي في إقليم غرناطة، وبالبُسُط المدجَّنة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر والتي انمحى أثرها بعد ذلك.

وإذا كانت أغلب الشواهد على هذا الطرز الأندلسي التطواني لاترجع إلا إلى القرن التاسع عشر، فإن بعض بقايا الطرز المذكور تعد أقدم، فهي ترجع إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وهي فترة أول ترحيل للثقافة الأندلسية. وتشهد بقايا هذا الطرز على ثقافة حافظت عليها المدينة بأمانة خلال ماينيف عن أربعة قرون.

الفترة الموريسكية وازدهار المدينة

كان للمهاجرين الموريسكيين في بداية القرن السابع عشر دور كبير في توسع تطوان وفي الأهمية التي أصبحت تكتسيها. وابتداء من 1609، وهو التاريخ الذي اتخذ فيه قرار الطرد، وصلت إلى المدينة كبات جديدة من اللاجئين. وكان هؤلاء القادمون الجدد في الحقيقة يختلفون كثيرا عن سابقيهم. فهم لم يأتوا من الأندلس فحسب، بل من جميع أرجاء إسبانيا، وخاصة من قشتالة وأراغون. وكان هؤلاء "الموريسكيون" الذين تنصَّروا في الظاهر، يدينون بالإسلام سراً. ولم تشمل قرارات النفي الأولى في 1566-1567 إلا بعض أولئك الذين خانتهم بشكل أو بآخر السمات المميزة لحياتهم اليومية، كطريقة كلامهم وتفاصيل لباسهم وارتيادهم الحمام وأغانيهم ورقصاتهم. أما عملية الطرد الكبرى التي أمر بها فيليب الثالث فقد شملتهم جميعا

ومن جديد غصّت الطرق الكبرى المؤدية للمنفى، واستقطبت تطوان الكثير من المهاجرين، وكان استقبالهم حسنا على العموم. وكما كانوا قد أوخذوا في إسبانيا لأنهم ظلوا مسلمين، فإنهم لُوموا في المغرب على عدم بقائهم في معزل عن التأثيرات المسيحية. ألم يتكلموا الإسبانية بسهولة وتلقائية أكثر من تكلمهم العربية؟ ألم ينحصر فهمهم للإسلام غالبا في الطقوس وظاهرها؟

وفي فاس كانت التصرفات العدائية تجاه المهاجرين متعددة وسافرة، بل حتى كلمة موريسكي اكتست معنى محقرا، وسكن هؤلاء المهاجرون أحياء متميزة. وفي سلا، بما أنهم كانوا عرضة لعداء السلاويين، فإنهم استقروا في العدوة الأخرى لأبي رقراق، في سلا الجديدة قبالة سلا القديمة. وفي تطوان نفسها كان المهاجرون ضحايا مشاحنات مأساوية أحيانا، كتلك التي يحكيها جون هاريسون (John Harrison). ففي سنة 1625، تمت حسب هذا الأخير مطاردة وقتل بعض الموريسكيين نظرا لديانتهم المسيحية المفترضة. ومن المحقق أن بعضهم التجأ إلى سبتة الكاثوليكية.

وهكذا في الثلث الأول من القرن الثامن عشر، أصبح سكان المدينة يعرفون زيادة هامة في العدد وتباينا في الأصل. فعلاوة على "الأندلسيين" الذين تنعتهم المؤلفات الأوربية بـ "الموريين" (Maures)، هناك الموريسكيون الذين يعتبرهم الراحلون الأجانب عامة "ظرافا ومتحضرين ولطافا مع المسيحيين"، ثم الريفيون

المتمدنون الذين قاموا بالأعمال الثانوية في المدينة، وأخيرا اليهود. وكان هؤلاء كثيرين، ويبدو أنهم كانوا من أصل أندلسي في غالبيتهم. وحسب وثيقة يهودية ترجع إلى 1613-1610، وتعتمد على سجلات الضرائب، فإن اليهود كانوا يمثلون عشر سكان المدينة. وتوجد في أيامنا هذه عدة عائلات تطوانية يمكن إثبات أصلها الإسباني والكاثوليكي انطلاقا من أسمائها كلوقش (Lucas)، وغرسية (Garcia)، [انقرضت]، وموراريش (Morales)، وراغون (Aragon)؛ أو انطلاقا من وجود حرف پ (p) فيها، وهو حرف غير مستعمل في لغة الضاد، كاسمي البروبي (Probi) أو پايص (Payes). وتذكرنا أسماء العائلات اليهودية أيضا بأسلافها الموريسكيين أو المتنصرين كطوليدانو (Toledano)، وپاريينطي (Pariente)، وپنطو (Pinto)، ومورينو (Moreno)، ولاريدو (Laredo)، إلخ.

ولما وصل هؤلاء الموريسكيون إلى المغرب، كانت البلاد مقسمة نتيجة الحروب الأهلية وماعرفته من صراعات اقتتل فيها الإخوة في أواخر الدولة السعدية. وأدى هذا الصراع إلى فراغ سياسي وقانوني في الشمال. وبرزت خلال انحطاط الدولة السعدية قوى أخرى نذكر منها على الخصوص الزوايا. وكان نفوذ زاوية الدلاء يشمل الأطلس المتوسط والشمال المغربي، ووصل تأثيرها، الثقافي خاصة، إلى تطوان. وفي هذا الجو الذي طغت عليه الصراعات والانشقاقات، كان تولي عائلة النقسيس الحكم أمرا طبيعيا. وكانت سيطرتها كسيطرة العياشي[30] في سلا أو غيلان[31] في الهبط، تشكل حلقة في ذلك الحزام الأمني الذي كانت القوى الحية في البلاد تقاوم به الاحتلال الإيبيري في غياب سلطة مركزية قوية وموحدة[32].

وتمثل عائلة النقسيس نموذج حكومة المدينة الدولة المستقلة. ولايمكننا القول بقيام هذه العائلة في بدايتها بتمرد ضد السلطة المركزية المتلاشية. فمحمد النقسيس[33] الذي كان يتلقى العلم في تطوان، ظهر على مسرح الأحداث لما طلب العون من قريبه المقدم أحمد بن عيسى النقسيس ـ الذي اشتهر بهجماته على سبتة في 1588 ـ على القبائل المجاورة، وخاصة منها قبيلة وادراس. ولقد مكنه انتصاره من السيطرة على تطوان من 1597حتى وفاته سنة 1610. وفي الميدان السياسي تمكن آل النقسيس من الاحتفاظ بسلطتهم على المدينة ونواحيها إلى غاية بداية حكم المولى اسماعيل في 1672. ولقد تولى من بعد محمد النقسيس، ابن عمه المقدم أبو العباس أحمد بن عيسى النقسيس (1622-1610)[34]، ثم ابن هذا الأخير عيسى بن أحمد مع إخوته، ومنهم عبد الله (1631-1629) ، ثم محمد بن عيسى بن أحمد (1653-1640)، وأخيه عبد الكريم بن عيسى من بعده (1659-1653)، فأحمد بن عبد الكريم (1660-1659)، ثم أحمد بن عيسى (1672-1660) الذي قبض عليه السلطان المولى رشيد. وبين 1667و 1672 أدت

الاضطرابات التي عرفها شمال المغرب من جهة، وهجوم السلطانين (الرشيد وإسماعيل) من جهة ثانية إلى طرد آل النقسيس الأخيرين من الحكم[35].

ولقد عرف تاريخ تطوان هيمنة هذه العائلة على أحداث القرن السابع عشر الذي يقترن في تاريخ المدينة، بترفه ونكباته، بمصير آل النقسيس. ويعتبر طول مدة حكم هذه العائلة مثلا واضحا يثبت مدى أصالة المدينة من الناحية السياسية، كما يمثل حكمهم هذا نموذجا لسيادة جهوية تختلف عن تلك التي أسسها المنظري. وتتجلى سمات هذه السياسة في ثلاثة ميادين: الذود عن البلاد ومقاومة المسيحي، ونمو المدينة الاقتصادي وما نتج عنه من ازدهار فن العمارة في المدينة وتطورها الحضري.

ويبدو آل النقسيس أولا كأبطال الحرب "الوطنية" فلقد حاصروا سبتة، وهاجموا في البحر السفن الكبرى الأوربية بفضل طواعية وسرعة جواريهم الصغيرة. ومالبث قراصنتهم أن أرعبوا الأوربيين، وكانوا يتخلصون من مطارديهم بتواريهم في مياه نهر مرتيل. والمدينة محمية ببعدها النسبي عن البحر، وهي محمية أيضا بموضعها وبتحصيناتها. وكانت القرصنة نشاطا حربيا ومقدسا (في رأي مزاوليها)، وهي كذلك مصدرا للربح، وتنظم العلاقات التجارية أكثر مما تعرقلها.

المبادلات مع أوربا

قامت تطوان منذ القرن السادس عشر بدور محطة ترحيل لمبادلات فاس التجارية. ومالبث أن اعتبر الفاسيون تطوان بنت مدينتهم. وكانت العلاقات التجارية والثقافية بين المدينتين دائمة، ولقد تطورت هذه العلاقات منذ عهد مبكر. وفي الواقع، يهدف هذا النعت (بنت فاس) دون شك، إلى تعظيم تأثير العاصمة الإدريسية، والتقليل من أهمية التأثير الأندلسي والعثماني من بعده. ولقد كانت التفاعلات بين المدينتين دائمة. وإذا كانت تطوان قد استقبلت منذ عهد مبكر المهاجرين الفاسيين، فذلك راجع إلى أنها كانت تشكل الباب الرئيسي إن لم يكن الوحيد المؤدي لأوربا[36].

وإن تجارة تطوان المزدهرة خلال القرن السادس عشر والسابع عشر بالخصوص من جهة، وعلاقة التطوانيين بالعالم المتوسطي وبداخل المغرب من جهة ثانية تفسر انفتاحهم. ولقد جسد المهاجرون الأندلسيون أنفسهم من قبل هذا الانفتاح، ذلك لأنه كانت لهم هوية اجتماعية ثقافية وجب الحفاظ عليها، ولأنهم كانوا قد ورثوا عن أسلافهم تقليدا قديما قائما على العلاقات مع الشعوب والثقافات واللغات والتقاليد والعقليات والديانات الأخرى.

ولقد استفادت أنشطتهم التجارية من موقع المدينة. فهي من الناحية الجغرافية على اتصال بأوربا وإفريقيا، وتراقب جزئيا، بين البحر المتوسط والمحيط، مضيق جبل طارق. ومن الناحية الجيوسياسية كانت تطوان، من الرباط إلى حدود الريف الشرقية،

المرفأ المغربي الوحيد الذي لم يكن يحتله الأجنبي. فلقد أدى الاحتلال البرتغالي للمدن الساحلية الرئيسية إلى جعل تطوان الممر الضروري للتجارة المغربية الشمالية الجنوبية، بين حواشي الصحراء والبحر المتوسط. وكانت تطوان كذلك المدينة الوحيدة التي لها اتصال مباشر بالقبائل الريفية. وشكلت التجارة أهم أنشطتها الاقتصادية، سواء تعلق الأمر بالتجارة الكبرى الدولية التي نشطت بينها وبين المدن الرئيسية، والتي امتد مجالها من الشرق الأدنى إلى الدانمارك، أو بالتجارة الوطنية التي شملت ضروبا شتى من البضائع، من المواد الخام إلى المصنوعات، أو بالتجارة الجهوية، مع الشاون وقبائل بني يدر وغمارة المجاورة. وكان نشاط القرصنة يغذي تجارة خاصة، وهي نخاسة المسيحيين التي ذكرناها عند الحديث عن تهيىء المطامير. وكانت النخاسة تستقطب عدة بعثات لافتداء الأسرى، قادها خاصة البرتغاليون والإسبان. وكان القساوسة كالقس كونطريراس (Contreras)، والتجار المسلمون واليهود، بل وحتى الحاخامون كالحاخام يوسف ميخياس (Joseph Mejías) أو ميسراس (Mesras)، يقومون بدور الوسطاء في هذه التجارة المربحة[37].

ولقد كانت أهمية المبادلات التجارية ووفرتها وتنوعها تشجع الاتصالات الشبه رسمية والرسمية مع الأوروبيين. وكانت لآل النقسيس اتصالات مباشرة مع القوات الأوربية. وهكذا نجدهم يأذنون للانجليز باستعمال تطوان كقاعدة خلفية خلال حصارهم لقادس سنة 1656 [38]، ويستقبلون القناصل المسيحيين[39]. ولقد استقر قنصل انجليزي في المدينة سنة 1657، وكان قد سبقه إلى ذلك نائب قنصل فرنسي.

وكانت التجارة تشجع الصناعة التقليدية، وكانت هذه الأخيرة بدورها تنشط التجارة. وكان الإنتاج يكتسي أهمية وشهرة بالنسبة للجلد والخزف والنسيج وصناعة الحرائر على الخصوص. وكانت هذه الصناعة تستعمل الحرير الخام المستورد من الشرق الأدنى أو إسبانيا، لكن معظم الحرير الخام كان يأتي من الأرياف المجاورة حيث كانت أشجار التوت تغطي مساحات هامة. ومن الأراضي المجاورة أيضا كان يأتي خام المعادن، وكانت تطوان مشهورة بجودة أسلحتها[40].

المدينة خلال القرن السابع عشر

نمو أرباض الموريسكيين

لقد استقر في تطوان حوالي عشرة آلاف موريسكي، وربما بلغ عدد من استقر منهم في هذه الناحية أربعون ألفا. وبلغ عدد السكان الإجمالي في منتصف القرن مابين اثنين وعشرين وستة وعشرين ألف نسمة، وهو عدد هام بالنسبة لهذه الفترة[41]

وسيظل هذا العدد ثابتا تقريبا إلى غاية الانفجار الديموغرافي الذي عرفه القرن العشرون. وأدت هذه الزيادة في عدد السكان إلى اتساع المدينة التي تضاعفت مساحتها أربع مرات لتصل إلى حجم المدينة المحصنة الحالية. وأجبرت طوبوغرافيا الموضع السكان على بناء حيّيْن جديدين غرب وشرق المدينة الأصلية (البلد الحالي). وكان أحد هذين الحيّيْن في الغرب، وهو حي العيون[42]، يُعرف في ذلك العهد باسم رباض الأندلس أو الحي الأندلسي. أما الحي الآخر، الطرنكات[43]، فهو يحمل إسما غير مألوف، ربما من أصل إسباني قشتالي. ويبدو تصميم الحي، وهو مثمّن الأضلاع بعض الشيء، على أن موريسكيي عصر النهضة الإسبانية قد أدخلوا معهم مفهوم التصميم المدني الأمثل الذي يتعارض تماما مع النموّ المرسل لحي "البلد ومدن العصر الوسيط الإسبانية الأخرى. وتمثل الرباط بدورها نموذجا للتصميم المثمّن الأضلاع الموريسكي، وهو نموذج أقرب للأصل.

ولقد أدى ازدهار التجارة والصناعة اليدوية في المدينة إلى تنظيمها إداريا واقتصاديا، كما أدى هذا الازدهار إلى استعمال جديد للمجال. وعرفت تطوان أحياء تجمعت فيها صناعات يدوية خاصة. وكانت هذه المدينة الجديدة التي يصفها رحّالة نهاية القرن السابع عشر، وخاصة پيدو دو سان أولون (Pidou de Saint-Olon) حسنة البناء ومنفتحة غير منعزلة؛ وتوسعت ممتدة فيما وراء تحصينات المدينة التي أسسها المنظري. ولن تحمى هذه المدينة بسور جديد إلا في غضون القرن الثامن عشر.

وفي ميدان هندسة البناء، لازال تراث الموريسكيين غنيا. وأبرز مجموعة أبنية الطراز الموريسكي التي حوفظ عليها في المغرب توجد بلا شك في الشاون، بدورها المسقفة بالقرميد ونوافذها الخارجية، بخلاف دور المدن الأخرى بفتحها الداخلية وسقفها المستوية التي تعلوها السطوح. وتعلو أبواب الدور والمساجد حنايا نصف

دائرية مع ناتئة، وتدعمها أعمدة صغرى على الجانبين. ويوجد هذا التنميق في مدينة الرباط الموريسكية وسلا كما في تطوان وكذا في المدن الصغرى في المجردة، في تونس الموريكسية. ويمكن القول أن تطوان في تلك الفترة كانت تشبه مدينة الشاون الموريسكية كما تظهر لنا اليوم.

وإذا كانت بعض مميزات هذا الطراز المعماري قد اضمحلت في تطوان، كسقف القرميد خاصة، فإن آثار الطراز الموريسكي لازالت موجودة في عدة مباني أثرية. وتشكل المساجد أهم هذه المباني وأكثرها، وكان اللاجئون قد بنوها بوفرة؛ خمسة منها شيدت خلال السنوات الأولى في حي العيون أو رباض الأندلس، وأخرى في الحي الجنوبي. والكثير من هذه المساجد أعيد بناؤها وتنميقها من جديد خلال القرون اللاحقة، غير أن بعضها لازال يمثل مساجد الطراز الموريسكي كما نجدها في الشاون وتسطور، كما هو الشأن بالنسبة لجامع المصيمدي الذي بني في 1611 وجدد بناؤه في 1958(44)، والجامع "الجديدة" الذي شيد سنة 1640، وجامع العيون الذي يرجع تاريخه إلى سنة 1620. وتتميز هذه المساجد بمآذنها التي لم تزخرف إلا قليلا إذ اقتصر تنميقها على أفاريز من الآجر، وزينت أحيانا ببعض الحنايا الخادعة. ويمكن مقارنة هذه المآذن بقباب أجراس الكنائس ذات الطراز المدجن الإسباني.

ويشتمل داخل المساجد وأفنيتها غالبا على أروقة نصف دائرية وليس على شكل حدوة كما هو الشأن عادة في فن العمارة بشمال إفريقيا منذ عهد المرابطين. وتعتبر الحنية الدائرية أو "الحدوة الدائرية" ميزة أساسية في الهندسة المعمارية المدجنة ، أو هندسة بناء عصر النهضة الإسباني في الأقاليم الأندلسية، وهي سمة تميز فن العمارة الموريسكي في المغرب وتونس. ويمكننا أن نجد هذه الحنية الدائرية مع ناتئة وتيجان أعمدة من طراز طوسكاني في بعض الدور التي ترجع إلى القرن السابع عشر. وعلى الجهة المطلة على الفناء، عادة ما تأتلف هذه العناصر الهندسية مع فن عمارة أصيل ناتج عن تقاطع حنايا الزوايا، وهو تنميق يرجع بدوره إلى هندسة البناء الإسبانية المدجنة وكذا هندسة بناء عصر النهضة الإسباني.

وتلفت الجوامع والدور النظر ببساطة هندستها وانعدام السطوح المنمقة فيها ؛ فلا معجون مرمر منقوش، ولاخشب منقوش أو مدهون، وقليل من القرميد المبرنق. وهذه الأبنية مبلطة عادة بـ "المزيهري (tomettes)، وهو آجر غير برّاق ومستطيل أو سداسي الشكل. وأبرز تنميق في الجوامع والدور التطوانية التي ترجع إلى القرن السابع عشر، يشكله الزليج المستورد من الأندلس أو من كاطالونيا، وهو عادة أبيض اللون ويحمل رسوما صفراء وزرقاء.

ويمكن أن نقابل سطوح هذه الأبنية ببساطة فن العمارة المدجن في إسبانيا،

وهي بساطة تعكس تغييرا في الذوق راجع على الأرجح إلى ضعف إمكانيات المشيدين، خلافا لما عرفته من غنى بلاطات بني نصر في غرناطة والمرينيين في فاس والسعديين في مراكش.

وأهم جزء محفوظ من دور هذه الفترة هو مجموعة أفنية قصر عائلة النقسيس الذي يوجد خارج المدينة الأولية (البلد) غربا، بالقرب من الساحة الرئيسية أو الفدان، في ممر سمي باسم المقدم النقسيس، "زنقة المقدم وإلى غاية القرن العشرين، كانت الزنقة التي توجد فيها هذه الدّور تسد ليلا بواسطة بابين ثقيلين يوجدان عند مدخلي الزنقة. واشتهرت قصور آل النقسيس بأنها كانت تحتوي على إصطبلات هامة لدوابهم، وعلى رياض. وتاريخ بناء هذا القصر غير معروف بالضبط، فربما تم بناؤه بعد تهديم قصر سابق سنة 1610. ولما أبيدت عائلة النقسيس في نهاية القرن السابع عشر على يد السلطان مولاي إسماعيل، منحت دورها لشرفاء وزان الذين أطلق إسمهم على هذا الدرب المأهول.

المقبرة

تقع المقبرة على منحدر وعر من جبل درسة، ولقد عرفت بدورها نموا خلال القرن السابع عشر. وبينما يوجد قبر المنظري بالقرب من باب المقابر، فإن قبر المقدم أحمد النقسيس يوجد في الجزء الأعلى من المقبرة حيث يمكننا رؤية عدد من الأضرحة التي بنيت في نفس الفترة. وتتكون هذه الأضرحة التي بقي منها حوالي عشرة، من غرفة صغيرة مربعة الشكل تعلوها قبة. ولقد تم وضع ماتبقى من شواهد أضرحة الجزء الأعلى من المقبرة في حديقة المتحف الأثري بتطوان(45) ولهذه الشواهد شكل خاص وغريب عن الشكل الذي خلفه نحّاتو الحجر في المغرب خلال العصر الوسيط، لكننا نجده بالمقابلة في الأنصاب المدفنية في إسبانيا أو في مدن أخرى عمرها" الموريسكيون كالرباط وسلا. ولقد نحتت هذه الأنصاب في حجر الكلس المحلي، وهي عادة إما فردية أو مزدوجة ومنمقة بزخارف حلزونية الشكل، وأحيانا بزخارف زهرية ربما كانت من مخلفات جبهات جملون فن عمارة عصر النهضة أو الباروك الإسبانيين. ولاتحمل بلاطات القبور عادة أي كتابة تذكر، وبالتالي فلايمكن تحديد تاريخها بدقة، شأنها شأن الأضرحة ذات القباب. إلا أنه يمكننا القول بأنها ترجع كلها إلى القرن السابع عشر، وأن إنتاجها توقف بالتأكيد في نهاية القرن الثامن عشر.

ويشتمل نصب ضريح المقدم أحمد النقسيس الذي توفي سنة 1622 على كتابة منقوشة بخط مغربي واسع وسريع. وتنعته هذه الكتابة القبرية بالمجاهد وحامي المدينة وحاكمها، كما تخبرنا أن عشرة آلاف ناع بكوا الفقيد وهم يشيعون جنازته.

عناصر الثقافة الموريسكية

إن التأثير الإسباني جلي في فنون المدينة بشكل لانراه في الأصقاع الأخرى من بلاد المغرب باستثناء الرباط ـ سلا. ويتجلى هذا التأثير في الزي والمطرزات والحلي. ولقد فرض طراز آخر نفسه بعد طراز بني نصر. ويستمد هذا الطراز أصله من مطرزات إيكسطريمادورا (Extremadura) وقشتالة (لا غانطيرا) (Lagantera) التي ترجع إلى عصر النهضة.

وكان الطرز في تطوان خلال القرن السابع عشر أحادي اللون دائما، وهو عامة إما أرجواني أو أخضر أو برتقالي فوق نسيج قطن أو كتان أبيض اللون. وتكرر الرسوم التجريدية في هذا الطرز صيغا نباتية على شكل دوائر مغلقة في الغالب، ولقد وصف تشكيلها بـ «كثيف ومتين، وقد تراودنا الرغبة في نعته بالهندسي».

وتبرز سمات النهضة الإسبانية كذلك في تقنيات المجوهرات وأشكالها. وتنمق حلي شمال إفريقيا عادة بأشكال زهرية ورسوم هندسية الشكل، ولا يستثنى استثناء شبه تام إلا تمثيل الحيوان أو الإنسان، وهو تمثيل محظور في الإسلام. بيد أنه هناك في تطوان حلية متدلية على شكل طائر (الطير) كانت جد رائجة، وشكلت إلى عهد قريب عنصرا أساسيا في زينة العروس التقليدية. وشكل هذه الحلية متميز، فالطَّير تمثل فيها أحيانا برأسين وتنظر إلى الناظر إليها مواجهة، وهي متوّجة. وتجدر الإشارة إلى أن الحلي المتدلية على شكل طائر تشكل جزءا من المجوهرات الأوروبية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وأنها تشكل أيضا شعار الهابسبورغ (Habsbourg).

ويتجلى تأثير عصر النهضة الإسباني أيضا في زي نساء تطوان اليهوديات، فهو لا يتكون من القفطان المألوف الذي كان يلبسه النساء والرجال المغاربة، مسلمين كانوا أو يهودا، وإنما من سترة وتنوّرة طويلة، عادة من المخمل الأحمر القاني أو الأسود مع تطريز بالذهب. وكان الحزام الصغير والفستان الطويل المتصلب، والطرز على شكل دوائر كلها أشكال لباس ميّزت زيّ إسبانيا خلال القرن السادس عشر، وهي أشكال نجدها كذلك في الرباط حيث بقيت مألوفة إلى غاية القرن العشرين.

حكم آل الريفي وعصر تطوان الذهبي

الحياة السياسية

يشكل انهزام آل النقسيس الأخيرين في صراعهم مع المولى إسماعيل سنة 1687[46]، وتعيين السلطان للحكام على مدينة عاشت مستقلة وثائرة لأمد طويل، منعطفا وليس تحولا في تاريخ تطوان. ولقد أوّلت علاقات المدينة الدولة مع السلطة المركزية، وهي علاقات معقدة وملتبسة، تأويلات متناقضة. ومما لاشك فيه أن هذه العلاقات تطرح إشكالا كبيرا على مر القرون، وأنها كانت تتوقف بطبيعة الحال على قوة السلطة الحاكمة للبلاد. وهكذا فضعف سلاطين المرينيين الأواخر يفسر تأسيس الشاون وإعادة بناء تطوان، إلا أن هذا التأسيس والبناء كانا قد تما بمباركة السلطة المركزية من جهة، ومعارضة القبائل المجاورة من جهة ثانية[47]. وتذكر بعض الروايات الاتصال الذي قد يكون الأندلسيون المؤسسون أجروه مع السلطان[48]. فهؤلاء كانوا يبحثون عن إضفاء الشرعية على مقامهم أكثر من بحثهم عن مساعدة مادية ما لعملية التأسيس، وهو تصرف متوافق تماما والعقلية الحضرية الأندلسية. وفي الأندلس، كان المنظري ومحاربوه قد تعودوا العمل في إطار نظام عسكري رسمي تحت إمرة ملك غرناطة، وبالتالي فمسألة البيعة لم تكن غريبة بالنسبة إليهم. غير أن الواقع السياسي في المغرب خلال القرن السادس عشر وجزء من السابع عشر كان يحتم عليهم استقلالا ذاتيا ضروريا للبقاء في بيئة محلية عدائية. وبالنسبة لهؤلاء الأندلسيين، كانت القبائل تمثل معارضة غير شرعية وتهديدا خطيرا يضاهي الخطر المسيحي أو يكاد. ولقد تعارضت في هذا الصراع عقليتان، العقلية القبلية المغربية التي لم تكن خاضعة تماما لسلطة مركزية ضعيفة، والعقلية المجاهدة والعسكرية لزمرة من المهاجرين الأندلسيين المصممين على الدفاع عن دينهم وعن حضارتهم.

فهل كانت تطوان مستقلة فعلا؟ لا، ولكن نزعتها كانت نزعة إلى الحكم الذاتي، وجنوحها كان جنوحا إلى تأسيس نظام سياسي يقوم على سيادة جهوية، ولا تربطه بالسلطة المركزية إلا بيعة هشة لم تترك لها ظروف البلاد السياسية من البيعة الحقة إلا الاسم. وكانت صراعات السعديين الداخلية بعد وفاة المنصور الذهبي سنة 1603، والفراغ السياسي والقانوني في البلاد قد شجع تأسيس النظام السياسي المذكور في

المدينة. ولقد حاول مولاي إسماعيل بحزمه المعروف كبح جماح هذا النظام، لكنه لم يتمكن من معاكسته إلا قليلا. وهكذا فبالرغم من أن حكام المدينة كانوا يعينون من لدن السلطان، فإنهم كانوا يحتفظون بسلطة واسعة، وتمكنوا بفعل شبه توارث مناصبهم من الحفاظ على الطابع السلالي لحكمهم.

ومع آل الريفي وصل نظام الحكم هذا أوجه، وهو يقوم على سلطة مورست بالتفويض، لكنها في الواقع كانت مستقلة؛ وعلى روابط ربطته بالسلطة المركزية- لكن دون أن تمنع الأسرة الحاكمة نفسها من ربط علاقات مباشرة مع الخارج- وعلى الارتياب من القبائل المجاورة واستعمالها في نفس الوقت في الجهاد، وعلى دور القوة الاقتصادية والمهارة في استعمال مختلف الشبكات التجارية. ولقد فرض تركيز السلطات السياسية والاقتصادية والعسكرية نفسه في الحواضر والبوادي المجاورة، وتذمر الناس لذلك. ويتجلى تركيز السلطات المذكور فيما خلفه آل الريفي من عظيم البناء و تميز الطراز المعماري.

وكان مؤسس هذه الأسرة الحاكمة عبد الله الريفي في بداية أمره قائدا للقوات المجاهدة البربرية التي كانت تساعد الجيش على استرجاع وفتح المدن المحصنة التي احتلها المسيحيون[49] وتفسر مصير هذه العائلة الفريد مجموعة من المعطيات الجيوسياسية، أولها المعطى الاستراتيجي. فبحكم وظائفها المرفئية وموقعها، كانت تطوان القاعدة العسكرية الرئيسية، وقاعدة تموين الجيوش المغربية في عملية استرجاعها للمدن التي احتلها الأوربيون. ولقد عرفت هذه الفترة اجتهاد مولاي إسماعيل في الجهاد. وهكذا انتزعت المعمورة سنة 1681، واستعيدت طنجة سنة 1684، واسترجعت العرائش سنة 1689، وحوصرت سبتة خلال ماينيف عن ثلاثين سنة، من 1694 إلى 1727. وكان المجهود الحربي يتطلب السلاح والذخيرة والبارود، وأخذت تطوان على عاتقها مسألة البحث عن هذه المواد وإيصالها إلى ساحات القتال. وكانت الموانئ المسترجعة قد أخربت وفقدت بورجوازيتها التجارية، وفي معزل عن أعراف البيع والشراء المترسخة في تطوان؛ الشيء الذي لم يمكن هذه المرافئ التي برزت من جديد على الساحة التجارية لشمال المغرب من أن تصبح منافسة لتطوان.

ولقد ترسخت وظائف تطوان المرفئية مع تباينها. فتطوان كانت مرفأ للجهاد البحري، وللتوقف والالتجاء، وللتجارة القريبة والبعيدة المدى، والميناء المفضل لمرور البعثات الديبلوماسية وبعثات الافتداء الأوربية، ومواكب الأسرى المفتدين، بل وحتى الحجيج الذين كان أصحاب القوافل البحرية الأوربية يأتون لنقلهم إلى المشرق؛ وهي عمليات مربحة ازدهرت في هذه التربة "الأندلسية" الخصبة. وعلاوة على بنيتها الخاصة كميناء شمال المغرب الوحيد وكقاعدة للعمليات وللجهاد البحري وللحملات العسكرية،

كانت لتطوان وظيفتان أساسيتان، فهي عاصمة جهوية، وهذا أمر لانزاع فيه، وهي كذلك منهل للثقافة ومركز للإشعاع الديني[50]

وكل هذه المعطيات- في جو مشحون بالعداء بين الأندلسيين والريفيين، بين الحضر والبدو- يمكنها أن تؤدي، كما حدث ذلك في منتصف القرن السابع عشر، ومن جديد في الثلاثينيات من القرن الثامن عشر، إلى الغيظ والمواجهات التي بدأت خلالها دعائم المجموعة الحضرية تتقوض. إلا أن السلطة الصارمة والمغرضة التي مارسها الحكام الكبار بدهاء وذكاء، مكنت من التئام الفريقين.

ولما مات القائد عمر بن حدو الريفي التمسماني من جراء وباء الطاعون في نوفمبر 1681[51]، وكان مولاي إسماعيل قد «ولاّه عاملا على مدن أزيلا وتطوان والقصر الكبير الساحلية»، وزاده ولاية المعمورة بعد استرجاعها في 30 أبريل 1681، خلفه القائد أبو الحسن علي بن عبد الله الحمامي التمسماني الريفي[52] ابتداء من 1681-1682 كنائب السلطان على الغرب، ويتعلق الأمر في الواقع بشمال منطقة الغرب (غرب القصر) التي تمتد من سبو إلى غرب الريف. وكان هذا الأخير قد حكم تطوان حيث رآه مويط (Mouette) في شهر مارس 1681 وقد اشتهر «بورعه ونزاهته ونبله». ولقد عاش طورا في المدينة وطورا في طنجة بعد 1684[53]، تاركا خليفته في تطوان في شخص الحاج محمد تميم التطواني أولا[54]، ثم لوقش فيما بعد. وأصبح علي بن عبد الله الريفي بفضل منصبه وسلطاته التي مارسها شخصيا أو بالنيابة، ليس نائب السلطان الفعلي على شمال غرب المغرب فحسب، بل ووسيطا ذا نفوذ عظيم في عدة عمليات تجارية تتعلق بالعلاقات مع المسيحيين ومع البلاد الأوربية.

ولقد أسندت لعلي بن عبد الله الريفي ابتداء من 1694 وحتى مماته، مهمة قيادة قوات المجاهدين التي كانت تحاصر مدينة سبتة "الاسبانية" المحصنة. وليبين ثبات عزمه في هذا الحصار، قام القائد المذكور ببناء دار ومسجد غير بعيد عن الحصن الاسباني[55] وكان الجهاد الذي مورس بطريقة مشتبه فيها، قد جعل علي بن عبد الله الريفي يحظى بالمجد المقدس الذي لايحظى به إلا المقاتل في سبيل الدين. وكان شرف المنصب ورفعة المقام قد مكنا صاحبهما من جني منافع كثيرة، اكتسبها من الضرائب ومن مساهمته في الجهاد البحري كما في التجارة التي كان يضع لها بنفسه ولصالحه الحد بين المشروع وغير المشروع. وهكذا نجده في 1708 يجبي ضرائب تجارة الشمع والجلود في تطوان؛ وكان له يهود يكاتبون مراسليهم في لقرنة وأمستردام ولندن، كما كان له يهودي في جبل طارق يدعى أبراهام بنيدر (Abraham Benider) الذي كان يتاجر لحساب الريفي منذ 1705. ويعتبر هذا القائد من أوائل المغاربة الذين اتجروا مع المستعمرة الإنجليزية عن طريق وسيط

يهودي. ولم يكن حاكم تطوان هذا يتردد في مصادرة السفن الأوربية لبيع بضائعه في مدينة قادس الإسبانية، أو الاطلاع فيها على أخبار الأسواق. وكان يريد من القناصل المسيحيين خدمته كما يخدمون أوطانهم، ويطالب الآباء الفادين بربح عارض علاوة على هباتهم المعهودة.

وعلى الرغم مما ذكر فقد لازم علي بن عبد الله الريفي التقريظ، وكصدى لما ذكره مويط (Mouette)، أشاد مولاي إسماعيل ثلاثين سنة بعد ذلك، في يوليوز 1711بالقائد المذكور «(...) لأن أمور البحر من حيث هي ما لأحد عندنا فيها كلام لا من خدمتنا ولا من أعيان مملكتنا ولا نظر ولا تصرف إلاّ لأخينا في الله القايد علي بن عبد الله صاحب محميتي طنجة وتطاون وما انضم إليهما من الأقطار المسبطية كلها (...) ثقة بعقله ودينه وصيانته ومروته وعلما بأنه ممن لاتأخذه في حق الله لومة لائم (...) وأنبناه عناّ في كل مايبرمه معكم ويمضيه لا في أمر المفادات ولا في غيرها من كل ما تريدونه عندنا وترومون إنجازه منا(...) كوننا عرفنا دينه ومذهبه وجده وحزمه وصدقه وصونه (...)»(56)

ولقد توفي أبو الحسن علي بن عبد الله الريفي في 29 غشت 1713 وهو في عز أيام حكمه ومغمور بفضل سلطانه وثروان. وخلفه ابنه الأكبر دون أية صعوبة تذكر، وارثا مقامه وأمواله(57). وسيطر الباشا أبو العباس أحمد بن علي الريفي كأبيه على مسرح أحداث المنطقة من 1713 إلى 1727(58) وإلى غاية الفتن التي أعقبت موت المولى إسماعيل، طبق الريفي الابن نفس السياسة بنفس الوسائل.

وهكذا فخلال نصف قرن تقريبا، حكم الرجلان المنطقة كما حكما المدينة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وتحكما في معظم العلاقات مع أوربا، ونميا ثروة هائلة ودبراها(59) وأدت سلطتهما الواسعة والتعسفية إلى ظهور المعارضة. فلقد آخذ الأعيان الأندلسيون الذين كانوا يشكلون النخبة المثقفة ونخبة رجال الأعمال في المدينة، أحمد الريفي على ضرائبه غير العادلة، وعلى تشييده القصور الفخمة من غير أن يؤدي ثمن مواد البناء ولا أجور اليد العاملة(60)

وخلال الفتنة والصراع من أجل السلطة الذي تحارب فيه أولاد المولى إسماعيل بعد موته في سنة 1727، ثارت على الحاكم عائلة من العائلات الأندلسية، وكان على رأسها وقتئذ الحاج أبو حفص عمر لوقش(61) وفي هذا التشابك الذي عرفته الأحداث، وتأييد الفرقاء تارة وانقلاب مواقفهم تارة أخرى، يصعب حصر أدوار مختلف الفاعلين في هذا الصراع وكيف تم اتخاذ مواقفهم المتعاقبة. فلقد تداخلت آثار الصراعات إلى جانب أو ضد السلطة المركزية، وطموحات أعيان الحضر، وغايات قبائل أنجره الجبلية. وأما أحمد الريفي وأخوه فقد انهزما في معركة أخيرة تدعى معركة عيطة السبت الشهيرة(62)

وكان الحاج عمر لوقش أندلسي الأرومة، وهو ينتسب إلى الخلفاء الأمويين[63].
وكان الرجل واسع الثروة، سبق له وأن شغل منصب كاتب مولاي إسماعيل، ثم اضطلع بعد ذلك بمسؤوليته على رأس الديوانة وكخليفة للقائد الريفي. وتصفه المصادر العربية كعالم وأديب، أما المصادر الأوربية فتذكر إحاطته بالمعارف ذات الطابع العلمي وإجادته للإسبانية[64] وهذا ليس بغريب، فالمسلمون الأندلسيون ظلوا يتحدثون باللغة الاسبانية كما كان اليهود يتحدثون بقشتالية مهجورة بعض الشيء آنذاك، وما زالوا يستعملونها إلى غاية القرن العشرين.

وفي سنة 1734، عاد أحمد الريفي على رأس جيش يتكون من ثمانية آلاف رجل، وأدرك ثأره بإرساله لوقش إلى منفاه بتارودانت[65] وأعاد الباشا أحمد الريفي بناء قصره بتطوان، واستمر في بسط نفوذه شمال المغرب بحيث شملت منطقة نفوذه طنجة والعرائش والشاون ووزان والقصر الكبير[66] وأصبح الريفي سيد شمال غرب المغرب بأسره الذي استقل استقلالا فعليا، بل إنه فكر في الاستيلاء على فاس، لكنه قتل في معركة ضد السلطان مولاي عبد الله سنة 1743[67]

وهكذا فرضت عائلة الريفي سلطتها على المدينة وكل المنطقة التي خضعت لها وطبعتها بطابعها زهاء ثلاثة أرباع قرن. إلا أن نهاية الاستقلال الذاتي / الاستقلال الذي تمتعت به المدينة كانت قريبة. فلقد عُين الحاج محمد تميم حاكما على المدينة سنة 1743، وقتله بعض السكان في 1750[68] وفي أيام محمد بن عمر لوقش، فرضت العائلات الأندلسية سيطرتها من جديد؛ لكن لما تولى سيدي محمد بن عبد الله زمام الحكم في البلاد سنة 1757، أجبر محمد لوقش على الفرار واللجوء إلى جبال مولاي عبد السلام بن مشيش حيث وافته المنية[69]

وخضعت المدينة من جديد لسيطرة السلطة المركزية خضوعا خفّف من وطأته بعد المدينة عن مركز الحكم، وروحها المتمردة، و وزن أعيانها. ولم تعد تطوان قادرة على التخلص من هذه السيطرة لمدة طويلة، وهي سيطرة استثقلها السكان قليلا أو كثيرا، وقبلوا الخضوع لها بحسب الفترات

شجـــرة عـائـــلـــة الريـــفـــي

علي بن عبد الله

(قائد طنجة و العرائش و تطوان ، توفي سنة 1713)

أحمد بن علي

(1713-1743 ، قائد طنجة و العرائش و تطوان)

عبد الصدوق

(واحد من رجالات الدولة في عهد سيدي محمد بن عبد الله)

عبد السلام

محمد

(عامل مولاي عبد الرحمن على الريف)

عبد الرحمن

(عامل على فاس في بداية القرن 20)

أحمد

(قائد الريف في عهد مولاي سليمان)

عبد الصدوق

(ديبلوماسي)

عبد السلام

(باشا طنجة)

محمد

(باشا طنجة)

محمد

إدريس

(عائلة قضاة)

سكان من أصول مختلفة

كانت المدينة آنذاك آهلة بحوالي عشرين إلى خمس وعشرين ألف نسمة من أصول مختلفة[70]، وكانت خاصيات سكان المدينة تجمع بين عناصرها البشرية المتباينة، وأحيانا تعارضت هذه العناصر البشرية من خلال تلك الخاصيات.

ولقد شكلت الجماعة الأندلسية المدجنة الأولية، والتي انضاف إليها الموريسكيون فيما بعد، الأقلية الحاكمة في المدينة؛ وهي بورجوازية ثرية ومثقفة وراقية ظلت اللغة الاسبانية معروفة لديها في الغالب. وكان للتجار الفاسيين منشأتهم التجارية وممثلهم في تطوان التي كانت تعتبر المرفأ الرئيسي لحاضرتهم[71]. ولقد عارضت القبائل المجاورة التطوانيين ومكنتهم في نفس الوقت من جلادتها واخشيشانها، وشكلت هذه القبائل تهديدا خارجيا أدى إلى تلاحم العناصر الحضرية التي كانت تربطها نفس المصالح والتي تحصنت وراء أسوار نصبت للاتقاء بها من الأرياف أكثر من العدو الأجنبي. وأمدَّت هذه القبائل المدينة أيضا بيد عاملة كدودة، وأحيانا بعناصر ميليشيا تستبسل في القتال، وبطواقم ومحاربي سفن الغلائط القرصانية في الغالب كرها أكثر منه طوعا.

وتطرح علاقات المدينة بالقبائل المجاورة إشكالا للمؤرخين كما طرحت مشاكل للتطوانيين في الماضي. ولقد وجدت فكرة العلاقة الثنائية بالتأكيد منذ إعادة بناء المدينة، ومازالت سائدة اليوم، لاسيما وأن التطوانيين يعتبرون أنفسهم ويعتقدون أنهم يختلفون عن جبالة والريفيين. إلا أنه إذا كانت هذه الفكرة مقبولة فيما يخص العقود الأولى من حياة المدينة، فإنها لاتنطبق تماما على القرن السابع عشر، ولايمكن التسليم بها بالنسبة للقرون اللاحقة.

وإن بقاء تطوان ونموها لم يكن ليتحقق لولا التعايش وبعض التقارب بين العناصر الأندلسية والقبائل المجاورة. ولقد أبرز عبد العزيز السعود في رسالته (تطوان خلال القرن التاسع عشر) تعايش مختلف العناصر المعمرة للمدينة. ولم يكن وجود السكان القادمين من الأرياف إلى المدينة وجودا جُسدانيا محضا، بل ساهم وجودهم في المدينة في إغناء الميدان الثقافي. وهكذا فإن أغلب العلماء التطوانيين في القرن السابع عشر الذين ذكرهم محمد داود كانوا جبليين. ولقد قلل العالم التطواني محمد المرير، وهو من أصل هبطي، من أهمية دور الأندلسيين في ازدهار الثقافة في تطوان تقليلا يكاد يكون إنكارا. وباستثناء عمر لوقش في القرن الثامن عشر، فإن أغلب الأسماء التطوانية اللامعة كانت من أصل محلي. والفرضيتان اللتان يتعارض من خلالهما المؤرخون الأندلسيو الأصل والمؤرخون المحليون ليستا متناقضتين كما قد يبدو ذلك. فعلاقات المدينة مع القبائل كان قد يسرها التأثير الأندلسي الذي شمل البوادي. وهكذا احتفظت قبائل أنجره بتقاليد ايبيرية بقيت على حالها إلى أيامنا هذه.

وفي الواقع فإن التكامل الاجتماعي والاقتصادي بين المدينة التي كانت بحاجة إلى المواد الغذائية وإلى المواد الخام لصناعتها اليدوية، والعالم القروي الذي كان بدوره بحاجة إلى صناعة المدينة وتجارتها، هذا التكامل خلق علاقات ضرورية وثيقة، ولو أنها كانت في الغالب مثار نزاع.

وهناك تكامل مماثل للتكامل السالف الذكر، ومشاركة في الميدان التجاري أديا، بعض الشيء، إلى دمج الجالية اليهودية الكثيرة العدد في المدينة. فلقد كانت تطوان تدعى أيضا "القدس الصغرى ، وبلغ عدد يهودها بين نهاية القرن السابع عشر ومطلع القرن العشرين ألفين وخمسمائة أو ثلاثة آلاف يهودي(72)، وهو ما يمثل عُشر أو ماينيف قليلا عن عشر عدد سكان المدينة الإجمالي. وهي جماعة أصيلة قامت بدور يستحق الاهتمام. ولقد شكل التعايش الديني عنصرا جوهريا في تاريخ تطوان الاجتماعي، كما كان هذا الوفاق من مقومات تاريخ الأندلس. ويشكل اليهود جزءا من المجتمع التطواني، وهم ليسوا أقل نشاطا من الموريسكيين ولاأقل تشبّعا منهم بالثقافة الإسبانية. ولليهود حيهم حيث ينظمون حياتهم الخاصة الدينية والاجتماعية، وهم يساهمون بفعالية في حياة المدينة الاقتصادية والتجارية على وجه الخصوص.

وكانت الطائفة اليهودية في تطوان تضم اليهود الذين هاجروا من الأندلس وأولئك الذين قدموا من جهات المغرب الأخرى، ومن بين هؤلاء نجد عائلات ليفي (Lévy)، وأبيطبول (Abitbol)، والسرفاتي (Sarfaty)، وكانوا ينعتون باسم "طوشابيم أو "الأجانب ، بينما نعت السفرديون بـ "ميشوراشيم ، أو "أجانب العالم العربي الإسلامي ولقد أجمع المؤرخون على اندماجهم في الحياة التطوانية. وتتجلى مساهمتهم الاقتصادية في كل الميادين، في الصناعة اليدوية والتجارة العامة وافتداء الأسرى والاستثمارات في أنشطة القرصنة. وكانت مساهمتهم جازمة بصفة خاصة في التجارة الكبرى الدولية، فلقد كانوا على اتصال بأقربائهم أو إخوتهم في الدين السفرديين الذين هاجروا إلى لقرنة و لشبونة أو أمستردام. كما كانت شبكة الجالية اليهودية في الخارج تقوم بدور الوسيط بينهم وبين الجماعات اليهودية الأخرى التي كانت ذات شأن في الجزائر وفي تونس حيث كان شأنها أعظم، بل وحتى جماعات اليهود في الشرق الأدنى أو تلك التي كانت تعيش على أبواب الصحراء.

وفي الميدان الاجتماعي كان اليهود بالرغم من عزلتهم في حيهم مندمجين في حياة المدينة، مشاركين أهاليها المسلمين تقاليدهم ولهجتهم التطوانية وموسيقاهم وزيهم، ولم تكن دورهم تختلف عن دور المسلمين من حيث هندسة بنائها. وكانت تجمع الطائفتين نفس التأثيرات ونفس الإرث الأندلسي. ويؤكد أحمد الرهوني هذه الأواصرالتي يتجسد رمزها القوي، حسب صاحب عمدة الراوين"، في تقاسم (الرقاقة): «نوع من الخبز يصنعه اليهود في عيد الفصح ويهدون منه لأحبائهم من

المسلمين»[73]. وبغض النظر عن مساهمتها في الحياة التطوانية، ساهمت الطائفة اليهودية التطوانية بشكل فعال في إغناء اليهودية المغربية بفضل تأثير حاخاميها المشهورين بعلمهم الغزير وخاصة فيما يتعلق بعلم أصول شريعتهم وفروعها.

وكانت علاقات التطوانيين بالأوربيين مماثلة إلى حد ما لعلاقاتهم باليهود من حيث تأثير ذلك التسامح الذي عرفه التعايش بين الجماعتين، ومختلفة اختلافا كبيرا في نفس الوقت. فلقد ظل المسيحيون يُعتبرون في وعي ولاوعي المسلمين غُصّاب أراضيهم وظالمي حقوقهم والعابثين بكرامتهم. غير أن هؤلاء المسيحيين لم يكونوا أعداء حقا إلا في ساحة الوغى وفي ميدان القرصنة أو في عمليات حصار المدن المحصنة. وكان الرق مشروعا وأغلب العبيد كانوا مسيحيين إلى حد أن أصبح العبد والمسيحي مترادفين. غير أن علاقات الأعمال كانت تتطلب التفاهم إن لم تكن تتطلب المودة بين الطرفين وكانت ممارسة شعائر الديانة المسيحية مسموحا بها في تطوان؛ وأدى تطور المصالح المشتركة إلى إقامة علاقات مؤسساتية، وهكذا أنشئت القنصليات الأوربية على امتداد القرن (السابع عشر).

وكانت القنصلية الفرنسية -أولى هذه القنصليات- قد أسندت ابتداء من 1629 إلى التاجر المرسيلي أندري براط (André Prat). ولقد ظل هذا الأخير يسكن في فرنسا مفوضا سلطاته إلى التجار. و ورث منصبه من بعده ابنه هنري براط (Henri Prat) سنة 1648، واستمر بدوره يفوض في محله الشخص الذي كان يريده، وكان هذا الشخص بصفة عامة تاجرا قليل المعرفة لانفوذ له. وخلال سنوات 1683 ـ 1686 أعيد تنظيم القنصلية وأجبر القناصل على السكنى في المدينة التي يمثلون فيها دولتهم. وكان أول قنصل فرنسي محترف مقيم هو بيير إسطيل (Pierre Estelle) الذي استقر في المدينة في أكتوبر 1685. وتاريخ هذه القنصلية ما هو إلا تعاقب للنزاعات مع السلطات والمواجهات مع التجار الفرنسيين. وقد أُلغي هذا المنصب في 1723.

ولم تصبح القنصلية الإنجليزية التي فتحت في 1657-1658 ذات أهمية إلا في مطلع القرن الثامن عشر. وهناك تباين واضح بين مراسلة القنصل الإنجليزي أنطوني هاتفيلد (Anthony Hatfield) (1717-1727) الغنية، وشبه صمت المحفوظات الفرنسية. ويعكس هذا التباين حلول التأثير الإنجليزي محل التأثير الفرنسي، ويتجلى ذلك في تزايد أهمية جبل طارق وفي ماتثبته أيضا الوثائق التجارية ووثائق الملاحة البحرية.

وكان عدد التجار الأوربيين الذين استقروا في تطوان بصفة دائمة قليل جدا، إذ لم يتعد عددهم، على اختلاف جنسياتهم، العشرة إلا نادرا. وتذكر الوثائق ستين إسما بالنسبة للفترة الممتدة مابين 1682و 1727. وكان الفرنسيون في البداية

أكثر عددا من الإنجليز، كما نجد من بين هؤلاء الأجانب بعض الإيطاليين(74)

وبالنظر إلى اختلاف سكانها واتصالاتهم وحركة المسافرين المستمرة الذين كانت مدة إقامتهم في المدينة طويلة على العموم، كانت تطوان في القرن الثامن عشر، المدينة المغربية التي تذكر أكثر بأساكل المشرق. وهكذا ففي نهاية القرن دائما، وفي أسطر معدودة، وصف البولوني جون پوطوكي (Jean Potocki) الذي نزل من سفينته قاصدا تطوان في 2 يوليوز 1791، لقاءه مع نائب القنصل الإنجليزي، وهو «شيخ مغربي يجيد التكلم بالإنجليزية»، ومع مغربي آخر«قدم من القسطنطينية»، ثم لقاءه مع مترجمه الخاص اليهودي صامويل السرفاتي (Samuel Serfati)، ومع شخص من جزيرة جربه كان قد قدم من بندر (Bender)، ووصف شابا برتغاليا مرق من دينه في تلك الأيام، وشرفاء تافيلالت الذين تباينت سحناتهم وتدرجت ألوانها من الأبيض إلى الأسود، وتاجرا من فاس، السّي بوهلال الذي كانت له وكالة
تجارية بجبل طارق وأخرى في تومبوكتو، وبصيادين إنجليز، وبحاخام قصير القامة قدم من مكناس...(174مكرر)

الازدهار الاقتصادي

لايمثل القرن الثامن عشر بلوغ النظام السياسي كماله في تطوان خلال عهد الريفي فحسب، بل إنه يمثل أوج ازدهار المدينة المادي. وبخصوص هذا الازدهار، لايجب ـ كما يذهب إلى ذلك البعض ـ عزل المدينة عن نواحيها، بل ولا ينبغي عزلها عن داخل البلاد المجاور لها. ولقد ارتبطت مختلف عناصر النشاط الزراعي والصناعي التقليدي وكذا الاتجار والتجارة الكبرى ارتباطا وثيقا وساهمت في الرخاء، وأحيانا في بحبوحة العيش التي تفسر ذلك الازدهار المدني والمعماري.

ولقد أثارت غوطة تطوان بأجنتها وبساتينها إعجاب الراحلين. وكانت هذه الغوطة تزود المدينة بالمواد الغذائية الطازجة، إذ بالرغم من وفرتها آنذاك، لم تكن البساتين الموجودة داخل المدينة وكذا الماشية التي كانت تربى داخل الأسوار كافية لتغذية السكان، كما كانت ثمارها تشكل جزءا من صادرات المدينة. وأصبحت تطوان في بداية القرن، بل وقبل الاعتراف بالسيادة الإنجليزية على جبل طارق سنة 1714، السوق التي تتموّن فيها حامية الصخرة المحصنة البريطانية بانتظام. وكانت فلك جبل طارق وتطوان تربط اتصالا دائما بين المدينتين. وكانت تبعية القلعة الإنجليزية النسبية لجارتها تبعية سياسية واقتصادية واستراتيجية في نفس الوقت ؛ ولقد أخذ أمير البحر نلسن (Nelson) هذا المعطى بعين الاعتبار قبل معركة الطرف الأغرّ (Trafalgar).

وازدهرت بساتين البرتقال في السهل الضيق وعلى الأجزاء الدنيا من المنحدرات الجبلية. وأصبحت الحمضيات شيئا فشيئا من بين المواد الأساسية

المصدرة. أما الحرير فكان يستعمل في المدينة نفسها؛ ولقد انبسطت بساتين أشجار التوت خلال القرن الثامن عشر، وهي الأشجار التي أدخلها الأندلسيون إلى المغرب دون شك في نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر. وكانت مملكة غرناطة من أهم مراكز القزازة وصناعة الحرير في العالم الإسلامي خلال العصر الوسيط. وكانت صناعة الحرير التطوانية تنتج الأنسجة والمطرزات والخيوط الحريرية. وبالنسبة للاستعمال المحلي كان الحرير يستخدم في صنع الحزم أو «الكرازي»، والملابس والمناديل والستائر. وكانت الحرائر تصدر نحو الجزائر، وتشكل جزءا هاما من البضائع التي كان يحملها الحجاج معهم.

وكان الحرير ينتج في دور العائلات لاستعمالها الخاص، كما كان ينتجه المزارعون المختصون. وبما أنه كان يحكى أن دود القز يمكن أن يزعجه الضجيج خلال فترة إنتاجه، فإن أصحاب الدور التي كان يُربى فيها كانوا يُغلقون مقارع أبوابهم لتصبح صمّاء في بعض أوقات السنة(75)

ولم تكن الجبال المجاورة عبارة عن مجال يميزه التقادم والعزلة والإكتفاء الذاتي. فاقتصادها وإن كان مستقلا جزئيا، يندمج في السلسلة التي تربط العالم القروي والمنتجين ـ منتجي المواد الأولية والغذائية ـ بالمدينة ومستهلكيها أوصناعتها التقليدية، وكذلك بالعالم الخارجي والتجارة الكبرى التي ترتبط به وكذا التنظيم الذي يساهم به في هذا الاقتصاد بتمكينه من تصدير فائض الإنتاج واستيراد الحبوب في حال حدوث المجاعة. وكانت آليات الإقتصاد خاضعة في حركتها للتواتر غير المنتظم للسنوات المغلالة والسنوات القحيطة. ولقد مكن هذا التعاقب التجار من جمع الأموال.

ولقد كانت الصناعة التقليدية جد نشيطة في المدينة خلال القرن السادس عشر كما رأينا ذلك، لكن تطوان كانت بصفة خاصة مدينة الاتجار والتجارة الكبرى(76)، ويجوز أن نقول أنها أصبحت كذلك أكثر فأكثر. وعن المبادلات الداخلية والجهوية فإننا لانعرف الشيء الكثير نظرا لندرة الوثائق المتعلقة بها. غير أن ذخائر القضاة الخاصة تزودنا بمعلومات نفيسة وخاصة بالنسبة لنهاية القرن السابع عشر ولوثائق القضاة والعدول فائدة قصوى(77) فهي تبرز من جهة التأثير الأندلسي في ميدان الشرع، فالفقهاء المالكيون الأندلسيون وجهوا المذهب المالكي في المغرب عبر القرون؛ وتكشف من جهة ثانية عن بُـنى الأنشطة التجارية. ويتعلق الأمر بسندات الملكية العقارية وبعقود بيع الدور والأجنة والمخازن والأراضي الزراعية، الخ. وتمدنا الوثائق المذكورة بمعلومات عن أحياء المدينة، وخاصة حيّي العيون وزيانة اللذين لازالا موجودين، وكذا بمعلومات عن أسواق اندثرت كسوق البقّالين. وتشهد هذه الوثائق على ازدهار الأنشطة التجارية وتعطينا معلومات عن الأثمنة وطبيعة المعاملات وكذا عمليات

التصديق عليها[78] وتشير وثيقة ميراث مؤرخة بعام 1076 هـ الموافق لسنة 1666 م إلى شخص يدعى "محمد بن محمد المعروف بالتطواني ، وتذكر عدة أسماء عائلات تطوانية ما زالت موجودة في تطوان كالخطيب والرزيني واللبادي والزموري وحيّون والرباحي والشويّخ. وهذه شهادة جديدة على بروز واستمرار "السلالات البورجوازية" التي تعتبر هيمنتها على الشؤون الاقتصادية والثقافية والسياسية من السمات المميزة للمدينة. وتذكر هذه النصوص أيضا فرنا عموميا وسجنا وبعض الحرف، كما تذكر باب الحديد الذي لم يعد يعرف اليوم، وكذا بعض الأراضي الزراعية الواقعة في أحياء عُمّرت في تواريخ لاحقة كحي المنجرة. ويلاحظ أن الحاضرة ذُكرت في هذه الوثائق باسمها في اللهجة المحلية: تطّاون.

وتلقي المصادر الأوربية الضوء على التجارة الكبرى وتمكننا من الإحاطة بمنتجاتها ومتّجهاتها. وتطلعنا القوائم بحمولات السفن على التنوع الكبير للأوساق، إلا أن بعض المنتوجات كانت أكثر رواجا. ففيما يخص الصادرات، نجد الشمع بصفة خاصة[79] ثم الأهُب والجلود المدبوغة. وفي حوالي اثنتي عشرة قائمة مفصلة ترجع إلى الفترة الممتدة مابين 1703-1724، نجد 90٪ من مجموع عمليات النقل البحري شملت الجلود، و75٪ من هذه العمليات شملت الشمع؛ وتذكر هذه القوائم الصوف بالنسبة لوسقين. أما منتجات الجنوب الأقصى فإنها لم تكن بالوفيرة ولا بالنادرة (تسعة أوساق) شملت ريش النعام والتمر والصموغ، الشيء الذي يبين مدى اتساع مجال التجارة التطوانية القاري. وبالنسبة للواردات فإننا نجد القروش الإسبانية التي كانت تمثل عُملة التجارة الدولية والتي كانت تطوان أكبر مستورديها من بين الموانئ المغربية، والأقمشة والبارود والأسلحة والأغلال وبعض المعدات الضرورية لتجهيز السفن. كما استوردت وبكميات متزايدة الحرير الخام والسكر والقهوة بل وحتى الشاي منذ ذلك العهد.

وكانت مبادلات تطوان تتم مع الموانئ الأوربية المتوسطية، وكانت مرسيليا من بين أولى هذه الموانئ حيث أتى وأقام وأحيانا سكن بعض التطوانيين كأليكسار (Alixar)، وبنس موزيس جوده (Bens Moses Judah) ، وأبراهام ماموران (Mamoran) (Abraham. وكانت المواصلات البحرية بين المرفأين تتم مباشرة بواسطة السفن اللانغدوكية بصفة خاصة. وهكذا ففيما بين 1693 و 1712، أبحرت من تطوان في اتجاه مرسيليا مباشرة سبع وخمسون سفينة، وبين 1713 و 1732 كان عدد هذه السفن سبعا وعشرين. وعن طريق تطوان التي كانت أول مرفأ مغربي وقتئذ، تمت مابين 15 و 20٪ من المواصلات مع أوربا، وحوالي ربع المواصلات مع مرسيليا.

وغالبا ما كانت ـ وخاصة في وقت الحرب ـ هذه المواصلات مع ناحية

بروفونس (Provence) تتم بطريقة غير مباشرة بواسطة ملاحة جوّالة" تشمل مرحلة لقرنة ومُسخِّريها اليهود[80] وكان هذا الميناء يتمتع بسمعة حياد عالمي ودائم ، وكان يهوده قد كونوا شبكة قوية من المراسلين (أقارب وحلفاء وشركاء أو مراسلين) على كل ضفاف البحر المتوسط. ولقد توطدت علاقات تطوان وإيطاليا خلال سنوات 1760-1770 نتيجة للحب الذي كان يكنه السلطان سيدي محمد بن عبد الله لهذا البلد، ونتيجة للدور التجاري أو الديبلوماسي الذي قام به الإخوة تشيابي (Chiappe)، وهم من الشخصيات البارزة التي وجهت العلاقات المغربية الأوربية خلال ربع قرن[81]

وقامت قادس بعض الشيء بدور الوسيط في هذه التجارة أيضا. ولقد كانت مبادلات تطوان مع ميناء قادس قديمة، وكان هذا الميناء قاعدة متقدمة للرهبان الفادين الذين كانوا يشترون الشمع بكميات كبيرة لصناعة الشموع الطويلة التي كانوا يستهلكونها بكميات كبيرة والتي كانوا يوسقونها إلى أمريكا اللاتينية. وكانت المدينة الإسبانية أيضا مزودا أساسيا للأسواق بالقروش التي كانت بمثابة محرك التجارة الكبرى. وكان تحويل احتكار التجارة مع الممتلكات الأمريكية من إشبيلية إلى قادس سنة 1717 ، وتوسيع امتيازات التجار الفرنسيين بصفة خاصة قد ساهم في حفاظ الميناء على نفوذه. ولقد كتب بارطيي (Partyet) قنصل فرنسا في المدينة سنة 1732، بخصوص اتجار قادس ودورها كوسيط في تجارة فرنسا مع المغرب أن «الحركة التجارية التي يعرفها هذا الميناء، سواء بالنسبة للأوساق التي تأتي بها السفن الفرنسية أو بالنسبة للبضائع الإسبانية التي تنطلق بها هذه السفن من الميناء المذكور، كانت عظيمة الأهمية بحيث أصبح من الواجب عدم تركها معرضة لهجمات الأعداء»[82] وامتدت علاقات تطوان التجارية فيما وراء قادس بعيدا نحو الشمال، في اتجاه لشبونة بالطبع، وكذا في اتجاه لندن والبلاد الواطئة والدانمارك. ولنشر هنا إلى أن تطوان كانت مدينة لكل شريك من شركائها التجاريين بمساهمة ما: بلاط إقليم بروفونس (Provence) الفرنسي، وزليج إسبانيا، والكتب المقدسة أو التقنية التي أتت من لقرنة، إلخ.

إلا أن تأثير جبل طارق أصبح على مر العقود هو الغالب في المدينة. وكانت العلاقات التي أقيمت بين تطوان وجبل طارق منذ الاحتلال الإنجليزي قد توطدت ما بين 1714 و 1721، حيث رجع السلم إلى غرب البحر المتوسط، وتم الاعتراف دوليا بالسيادة الإنجليزية على الصخرة. وبعد 1721، أصبح ازدهار هذه العلاقات مطردا بفضل شبكة بلغ تنظيمها الغاية[83] فلقد أقامت جماعة صغيرة من التجار التطوانيين في المدينة الإنجليزية حيث سيتملكون في وقت وجيز الدور والحوانيت. ويشتمل إحصاء سكان جبل طارق سنة 1725 على مائة وأحد عشر إسما

لعائلات يهودية، إثنتان وثمانون منها من شمال إفريقيا، وسبع عشرة من لقرنة (Livourne). ومن بين المغاربيين كان التطوانيون الأكثر نشاطا، ونذكر منهم بنيدر (Benider)، وبنوليل (Benoliel)، وحسن، الخ. ولقد أكد إحصاء 1759 معطيات الإحصاء السابق، وهو يشتمل على لائحة بأسماء اثنين وثلاثين تاجرا يهوديا مغربيا كانوا يسكنون الصخرة الإنجليزية، أغلبهم من أصل تطواني.

وشيئا فشيئا تم الإنتقال من مرحلة تأثير قادس السائد إلى مرحلة تأثير جبل طارق تأثيرا لامنافس حقيقيا له(84). وهكذا فمنذ 1740 كانت تطوان المرفأ المغربي الوحيد الذي كان على اتصال مباشر بأوربا بواسطة فلك ـ بريد كان يصل المدينة بجبل طارق كل أسبوع. وفي الصخرة الإنجليزية كانت الأخبار حول الأسواق المتوسطية ـ بل وحتى الأوربية بصفة عامة ـ الأكثر شيوعا والأكثر حداثة. ومعلوم أن الأخبار والمضاربة ترتبط ببعضها أشد الارتباط. ولقد أصبح "الثنائي المكون من المدينة الإنجليزية والمرفأ المغربي ـ تطوان ـ عنصرا أساسيا في حياتهما الاقتصادية. لكن هذا التأثير لم يكن اقتصاديا فحسب، فلقد طبعت التأثيرات الثقافية الجبلطارقية حياة جارتها المغربية بشكل نافذ.

وفي هذه المبادلات البحرية التي حددت معالمها بعض الشيء بفضل مجموعة هامة من الوثائق، وإن كانت تتخللها ثغر من جهة، ولم يتم استغلالها على أتم وجه من جهة ثانية،يجب تخصيص حيز لعلاقات مرفأ تطوان مع مرافئ الإمبراطورية العثمانية. ولقد استمرت التجارة الشرقية التي كانت تتم عن طريق البر مباشرة مرورا بتازة أو بطريقة غير مباشرة عبر محاطّ فاس، لكن تقييم هذه التجارة يبقى شبه مستحيل. وفيما يتعلق بالملاحة فلنا أكثر من دلالة. ففيما يخص الحج، لم يختر الحجيج طريق البحر إلا بالتدريج. وهكذا فلقد توجه السفير المغربي في فرنسا محمد تميم إلى مكة مرتين دائما عن طريق البر، وكانت معرفته بكل مايتعلق بإفريقيا تجعله «مطلوبا في أوساط العلماء الفرنسيين» (1681). وترجع الدلائل الأولى فيما يخص رحلات الحجاج البحرية المنتظمة إلى مابعد 1715، وإن كانت هذه الأسفار البحرية قد تمت دون شك قبل التاريخ المذكور. وكان نقل الحجاج نشاطا مربحا يتنافس من أجله تنافسا قويا كل من الفرنسيين والبندقيين والراغوسيين خاصة. وكانت راغوس (Raguse) (وهي دوبرفنيك (Dubrovonik) الحالية) المختصة في هذه التجارة، تربط هذا النشاط ـ الشيء الذ ي كان يحنق السلطان ـ بتجارة "القافلة"، تلك التجارة التي تتم من ميناء لآخر والتي كانت تدفع الراغوسيين أحيانا إلى إنزال الحجاج المغاربة في مرسى من المراسي بين المغرب ومقصدهم(85) ولدينا أربعة أرقام مضبوطة فيما يخص عدد السفن التي أبحرت من تطوان في اتجاه الأسكندرية بالنسبة لأربع سنوات من القرن الثامن عشر، وهي: ثلاث سفن في عامي 1726و 1742،

وأربع في عامي 1743 و 1744. ولقد ازدادت حركة هذه المواصلات بالتأكيد بعد 1767 إذا ماوثقنا بالملاحظات التي دوّنها القنصل شينيي (Chénier) في الرباط، والقنصل ڤاليير (Vallière) في الجزائر[86]

وهكذا ففي منتصف القرن الثامن عشر كانت تطوان تعتبر المدينة الوحيدة في دولة سلطان المغرب حيث اتجر ببضائع الشرق. وكان هذا الاتجار قائما في تلك الفترة على المبادلات التجارية المعهودة أكثر منه على البضائع التي يروجها الحجاج بعد رجوعهم إلى بلدهم. وكانت هذه المبادلات تسلك طريقين، طريق البحر غير المباشرة بواسطة أصحاب القوافل البحرية، أو بالإبحار نحو المقصد مباشرة، وهو إبحار نادر. وهكذا كانت القوافل البحرية تبحر من تطوان في اتجاه الجزائر وتونس والأسكندرية. ونظرا لانعدام المصادر الإحصائية، سنضطر للاكتفاء بما وصلنا من أخبار تتعلق بمخاطر البحر (غرق السفن وغنائم الجهاد البحري)، أو بالدعاوي المتعلقة أساسا بأداء أنوال السفن، والتي رُفعت مرارا أمام قنصل فرنسا في الجزائر. ولقد أحصت محفوظات القوافل البحرية الهولندية بعض التجارة المباشرة مع الشرق الأدنى. وكانت هذه القوافل التي تبحر تحت حماية بوارج القتال، توفد أحيانا بعض السفن للرسو في شواطئ تطوان. وهكذا استقبل مرسى المدينة سفينة سنة 1686، وأخرى في 1689، وثالثة في 1695، وست سفن في 1697 كانت قد قدمت من سميرنه. وإذا كانت عمليات الرسو هذه معروفة لدينا بفضل التدوين، فكم من سفينة رست وأبحرت من تطوان ما زالت حالاتها مجهولة لأنها لم تدوّن؟ وبرا كانت المبادلات التجارية تتم عن طريق محاط فاس وفنادقها، وكانت هذه التجارة تساهم في تكوين القافلتين الطويلتين السنويتين اللتين كانتا تربطان العاصمة بمدن المشرق.

ولامراء أنه في بداية القرن الثامن عشر سيطبع التأثير العثماني بطابعه هندسة بناء دور النبلاء ومباني المدينة الدينية. ولقد استمر الازدهار الاقتصادي الذي ترسخ في عهد آل الريفي، بل إن هذا الاقتصاد سيزداد ازدهارا في عهد سيدي محمد بن عبد الله. وكان هذا السلطان يولي عناية فائقة للحاضرة التي كانت تمده بأهم عائدات الدولة فيما يخص الرسوم الجمركية. وأصلح سيدي محمد بن عبد الله دار صناعة الأسلحة التي أسسها المولى إسماعيل، واستقدم التقنيين الأوربيين، واستعان خاصة بالترك الذين بعثهم السلطان مصطفى العثماني[87]. وما زال مصنع الأسلحة المعروف بـ «دار البومْبه» موجودا في حي العيون. وأسس السلطان سيدي محمد بن عبد الله كذلك دارا لسك النقود[88]، وكان نشاطها الهام قد تميز على الأخص بجودة مثقال الفضة الذي ضرب سنة 1195 هـ (1781/1780م)[89] وبالإضافة إلى ذلك، جدد هذا السلطان الترسانات، وعرف بناء السفن ارتفاعا هاما في الإنتاج خلال سنوات 1770. كما حفز بصفة خاصة على تقوية أسوار وسربات مدافع

(اسقالة) تطوان ووادي مرتيل اللذين دافعت عنهما حامية تتكون من ثمانمائة إلى ألف رجل[90]. ولقد ساهمت هذه المباني في تشكيل رسم المدينة في القرن الثامن عشر تشكيلا نهائيا، وهو الرسم الذي ما زلنا نجد معظمه اليوم داخل الأسوار.

المدينة خلال القرن الثامن عشر

التحصينات

يبدو أن المدينة ظلت بدون سور محيط جديد لحماية. الأحياء الجديدة طوال كل القرن السابع عشر تقريبا. فالأسوار الموجودة حاليا ترجع إلى السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر (إذا استثنينا بعض حصون القرن التاسع عشر). ولقد شيدت قصبة جديدة فوق بروز شديد الانحدار يشرف على المدينة. ويجب التمييز مابين هذه القلعة وبين قصبة المنظري القديمة والمحاطة بمباني شُيدت في وقت لاحق، والواقعة في قلب مدينة القرن الثامن عشر. وهناك لوحة للمدينة ترجع إلى 1721، تظهر تطوان فيها وقد أحيطت بالأسوار إحاطة شبه تامة، وتبدو القصبة المشرفة عليها وقد كَمُل بناؤها. وكان الراحل الإنجليزي جون بريت ويت (John Braithwaite) قد وصف سنة 1727 القصبة الجديدة كـ «مبنى قديم على مستوى واحد، يشتمل على حديقتين، وقد حصنت الحديقة الخارجية بأربعة أبراج، أما الحديقة الداخلية فكانت جميلة ومرتفعة وتشرف على المبنى بأسره»[91]. ويمكن أن نرجع بداية تشييد التحصينات الحديثة إلى عهد المولى إسماعيل وحكم علي بن عبد الله الريفي. وكان هذا السلطان قد بنى عددا هاما من القلاع في جميع أرجاء المغرب، بلغ عددها حوالي ستاً وسبعين قصبة من أحجام مختلفة. ومازال يوجد في مرتيل إلى اليوم الحصين بأبراجه وحديقته[92]، وكذا مرفأ تطوان الذي يرجع بالضبط إلى هذه الفترة. ولقد نشر فرناندو ڤالديراما (Fernando Valderrama) نقشا نقل محتواه عن بلاطة رخامية كانت توجد على الواجهة الجنوبية الغربية من القصبة، وهي ترجع إلى 1745، وتنسب البناء إلى الحاكم محمد تميم بأمر من السلطان مولاي عبد الله. غير أن المؤرخين المحليين ينسبون إلى الحاج عمر لوقش معظم المباني المدنيّة في تطوان في هذه الفترة[93]، الشيء الذي يرجع تشييد الجزء الأخير من التحصينات إلى سنوات 1727-1734. وفي الواقع فإن هذا البناء غير المتجانس يحتوي على إضافات تم بناؤها في أوقات مختلفة تتخلل فترة حكم آل الريفي المدينة مابين 1681 و 1740. وكان على أهل المدينة دون شك أن يحموا أنفسهم من الريفيين المجاورين وكذا من عدو خارجي محتمل.

وفي مرحلة التحصين الثانية، فيما بين 1750 و 1757، خلال حكم محمد بن عمر لوقش، تم إكمال بناء السور المحيط بين المدينة والقصبة، حول حي شديد الانحدار يدعى الطلعة. ويبدو جليا من خلال رسم 1721، أن هذا السور الخارجي لم يكن قد بني بعد في هذا التاريخ. ويحمل القرميد المبرنق في برج مضلّع الشكل بالقرب من القصبة نقشا مفاده أن مشيد هذا الجزء من السور هو محمد لوقش[94]

ولقد بلغ محيط دائرة أسوار المدينة في الأصل خمسة كيلومترات، وتراوح ارتفاعها مابين خمسة وستة أمتار، وبلغ معدل سمكها ثمانون سنتمترا وبني الجزء الأسفل من هذه الأسوار بالأحجار غير المصقولة، والجزء الأعلى بالآجر الذي يتمم الجزء الحجري على ارتفاع يتراوح بين متر ونصف ومترين. وكان الجزء الأعظم من السور المحيط متوجا بحاجز ذي شرفات يحمي مسلكا للجولات الدورية. وكانت تتكفل بصيانته مؤسسة خيرية، أو "الحبُس ، الذي كان يموله الناس، وهو مختص في هذا النوع من الخدمات. وكان السور المذكور يُكلس بانتظام مكتسيا آنذاك مظهرا يختلف عن مظهره الحالي، ومبرّرا تمام التبرير الاسم الذي أطلق على تطوان: "الحمامة البيضاء .

وكانت أبواب المدينة السبعة تقفل بإحكام عند هبوط الليل، ويعاد فتحها عند الفجر.ولقد قام جهاز الأسوار الدفاعي بدوره إلى غاية بداية القرن العشرين حيث تصدّى للهجومات التي شنتها قبائل جبالة على المدينة في 1903 ولدينا آخر وصف جيد وشامل لهذا الجهاز الدفاعي كان قد قام به جولي (Joly) سنة 1905[95] إلا أنه بعد 1914 ستهدم سلطات الحماية الإسبانية الجزء الغربي من السور لربط المدينة الجديدة التي بناها المستعمر خارج الأسوار بالفدان أو حديقة المدينة العتيقة الرئيسية، وكذا لينفذ الطريق إلى مقر الإقامة العامة الإسبانية[96] ولازالت بعض بقايا الجزء الغربي من هذا السور المهدم، والذي كان يمتد من باب التوت إلى باب الرموز، قائمة حول المصلى. ولقد أعيد بناء باب التوت شمال موضعه الأصلي وبالقرب منه. ويضلل هدم هذا الجزء من السور المحيط الزائر الحالي فيما يخص الحد القديم للمدينة الإسلامية المسورة.

قصر أحمد الريفي المشور، والقصور المعاصرة

كان أحمد الريفي كثير البناء ومولعا بالهندسة المعمارية، ولقد جارى هذا القائد المولى إسماعيل في مكناس، دون أن يضاهيه بطبيعة الحال، في كثرة التشييد التي عرف بها السلطان[97]. ولم يبن أحمد الريفي قصرا بتطوان وآخر بكيتان[98] ـ وهو عقيق خارج المدينة ـ فحسب، بل بنى أيضا جامعا بتطوان وآخر بطنجة[99] وقصورا شتى في طنجة والشاون وكذا في ضواحي سبتة.

ولقد وسَّع أحمد الريفي الحيّز القريب من قصر النقسيس لتشييد داره الخاصة التي يُفترض أنها بنيت فوق موضع حدائق قصر النقسيس. واستمر في سكنى هذا المبنى الجديد المعروف بالمشور القواد الآخرون في القرن التاسع عشر، ثم أصبح مقر الخليفتين مولاي المهدي ومولاي الحسن طوال الحماية الإسبانية[100] وعرف قصر أحمد الريفي (المشور) تغييرات هامة خلال سنوات 1920 و 1930، إلا أنه يمكن إعادة وضع بعض أجزاء تصميمه الأوّلي اعتمادا على أوصاف تلك الفترة وعلى الصور الشمسية القديمة.

وكان المشور يتكون من باحة رئيسية كبرى للاستقبالات ومن مصلى ومطابخ وغرف للخدم وحمامات، وكذا حدائق فسيحة ربما كانت توجد في المكان الذي بني فوقه فيما بعد قصر المقيمية الإسبانية. وبالرغم من ترميمها الهام، ما زالت الباحة الكبرى الرئيسية تحتفظ بالشكل التقليدي الذي بنيت عليه دور تلك الفترة والتي كان كل جانب من جوانبها يشتمل على ثلاث حنايا الحنية الكبرى الوسطى وتدعمها حنيتان أصغر منها. وتعكس هندسة البناء هاته بساطة هندسة الفترة الموريسكية بسطوحها الملسَّة والمطلية بالأبيض، وقنطرتها غير المجصَّصة. ويكمن تجديد بداية القرن الثامن عشر في الحنيّة المستدقة الرأس على شكل حدوة والتي تختلف عن رأس الحنية النصف الدائري كما كان يُبنى فيما قبل. ولقد تم اعتماد هذا التصميم بشكل شبه تام في باحات مختلف قصور و دور عائلات المدينة الأندلسية (راغون ومدينة واللبادي).

ولقد أدخلت في بناء قصر المشور تحسينات جديدة على التنميق الهندسي الذي كان معروفا إلى ذلك العهد في تطوان، وزُين هذا القصر بسقف وأفاريز نقشت بعناية في الخشب المدهون، وببلاط خزفي مطلي بالمينا، وفسيفساء، وسقف منقوشة، وزلاليج حفرت بشكل يجعل رسومها ناتئة. ويمكن مشاهدة بعض عناصر بناء قصر المشور الأصلي في المتحف الإثنوغرافي بباب العقلة. وسواء تعلق الأمر بالقطع الخشبية وتنميقها بالنقوش والدّهان، أو بالزليج والبلاط الخزفي، فإن سمات التأثير العثماني بارزة فيها من خلال اختيار الصيغ الوردية الطبيعية كالخزامى والقرنفل، الخ.

وفي القرن الثامن عشر كانت توجد داخل أسوار المدينة، بما فيها أحياء المصلى والملاح والحافة والجنوي وزيانة والطلعة الحالية، مجالات فسيحة غير معمرة وكذا عدة حدائق. ووسط هذه الحدائق والبساتين كان يرتفع بناء نُويْرات كتلك التي كانت توجد بالقرب من باب الجياف، وكانت في ملك البارون والدوق الشهير دي ريبيردا (J.G. de Ripperda)، ذلك المغامر الإسباني الهولندي الذي اعتنق الإسلام وسمي بعثمان سنة 1731، والذي توفي في تطوان سنة 1737[101]. ومع الأسف، لم تبق من هذه الدور ولو دار واحدة، ونفس الشيء بالنسبة للدور الريفية التي بنيت خارج الأسوار في جنان وادي نهر كيتان، فلم تبق منها إلا الأطلال. وتشهد هذه الدور

على التعايش الذي كان قائما بين الحياة الحضرية والضواحي القريبة من المدينة.

فن العمارة الدينية

تعتبر مدرسة لوقش[102] المدرسة الوحيدة التي ما زالت قائمة في تطوان. وتعتبر هندسة بنائها مطبوعة بطابع محلي قديم، وهي هندسة تتعارض وهندسة المباني الدنيوية الفخمة التي شيدها الباشا أحمد آنذاك وكانت مدرسة لوقش، قد بنيت إما على يد الحاج عمر لوقش، ثم تمم بناءها من بعده ابنه محمد، وإما بناها محمد لوقش وحده، لما كان هذا الأخير حاكما على المدينة (1750-1757). وكان محمد لوقش قد بنى أيضا قناتين ضخمتين، "قنا" باب العقلة و "قنا" باب التوت[103]؛ ويحمل هذان الأثران نقوشا لكاتبه وخطاطه عيسى الجزيري.

وتوجد مدرسة لوقش مباشرة شرق قصر النقسيس، وكان حكام المدينة قد استمروا في الإقامة بهذا الموضع في قلب المدينة. وكانت المدرسة ملاصقة لجامع لوقش الذي بني حوالي 1750، والذي ربما تمم بناءه السلطان سيدي محمد بن عبد الله. ويُروى، وقد يكون ذلك أسطورة أو حقيقة، أن طلبة تطوان أبوا الانتفاع بهذه المؤسسة الخيرية مالم يتوفر لهم الدليل على أن آل لوقش قد أثروا بطريقة شرعية. وكانت هذه المدرسة تؤوي الطلبة[104]، وهي تتكون من أربع وخمسين حجرة بنيت حول ساحتين داخليتين، واحدة منها فسيحة، والأخرى أصغر منها بكثير. وبالرغم من حالة الخراب التي توجد عليها الساحة الرئيسية اليوم، فإنها ما زالت تحتفظ بقنطرة رائعة تتكون من حنايا نصف دائرية أو إهليلجيّة تحملها عمد أسطوانية الشكل بُنيت بآجر خاص، وشبيهة بالعمد التي تميز - كما رأينا - هندسة البناء الموريسكية في تطوان خلال القرن السابع عشر[105]

ولقد أمر المولى إسماعيل ببناء زاوية بن مرزوق سنة 1726[106] وهناك مبنى آخر معاصر تقريبا للزاوية المذكورة، وهو زاوية سيدي الحاج علي بركة التي ترجع إلى سنة 1708[107] ويعكس بناء المدخل الرئيسي لهذه الأخيرة تأثيرا مصدره داخل البلاد، وربما جاء هذا التأثير من بلاط مكناس. وهناك مجموعة من التنميقات المتراكزة والمدببة الشكل تعلو حنية الباب المستدقة الطرف على شكل حدوة. ودعم هذا الباب بعمودين مبرّمين، وبنيت عارضته المصمتة بالآجر أيضا.

ولقد بني جامع الباشا بأمر من الباشا أحمد الريفي في 1737-1738، وكان يشكل جزءا من مجمع قصر المشور[108]. والجامع المذكور بناء أثري رائع يتميز بتجديدين رئيسيين. ويكمن التجديد الأول في تسقيف قاعة الصلاة بخمس وعشرين قبة عوض سقف القرميد المعهود في الجوامع المغربية. ولقد حُملت هذه القباب فوق أساطين يميزها الاعتدال بدل السواري الضخمة والمستطيلة الشكل المعهودة. أما التجديد الثاني فتجسده الصومعة المثمّنة الزوايا التي عوضت الصومعة التقليدية في

إفريقيا الشمالية والمعروفة بشكلها المربع. ولقد جاء هذان التجديدان من الجزائر العثمانية ومن اسطانبول في الأصل. ولاتوجد إلا صومعتان مثمنتا الزوايا في مغرب القرن الثامن عشر، وهما من بين ما أمر ببنائه الباشا أحمد الريفي، ويتعلق الأمر بجامع القصبة في طنجة وبالجامع الكبير في الشاون.

ومن الأبنية الأثرية الأخّاذة التي ترجع إلى هذه الفترة، زاوية سيدي السعيدي بصومعتها الجميلة المغطاة بالقرميد والتي تعلو مجموعة من القباب ذات عدة أضلع (109) غير أن التأريخ لعملية بناء هذه الزاوية يعتبر أمرا عسيرا. ويوجد نقش على قنا توجد خارج الزاوية يحمل تاريخ 1134 هـ (1721-1722م)، لكن إسم الواهب الذي هو على الأرجح الباشا أحمد الريفي قد طُمس عن قصد(110) والفرضية الأكثر احتمالا هي أن الأمر يتعلق بزاوية أقدم قد أعيد بناؤها من لدن الباشا أحمد خلال سنوات 1720-1730

التأثيرات العثمانية في الفنون

لقد أكدنا على أهمية العلاقات البشرية والاقتصادية والثقافية بين شمال غرب المغرب والبلاد العثمانية، هذه العلاقات التي رُبطت عن طريق الحج وكذا بالنظر إلى قرب الجزائر التركية. وتفسر هذه العلاقات التأثيرات الفنية المتعددة التي يمكن أن نجدها في تطوان خلال نهاية القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر.

ويعتبر فن الطرز الذي أدخل إلى المغرب في نهاية القرن الثامن عشر مطابقا لنموذج الطرز الذي كان سائدا في أقاليم الإمبراطورية العثمانية كما نجده في تركيا وكذلك في بلاد البلقان والجزائر. ويرجع أصل باقات الزهور المشتملة على الزهور المفضلة في النباتات العثمانية كالقرنفل، إلى نماذج نُسُج القرنين السابع عشر والثامن عشر. وتعتبر هذه الرسوم الزهرية الطبيعية فريدة في البيئة المغربية، فلا مثيل لها خارج تطوان. وكما هي العادة في هذا النوع من الأنسجة، فإن التطريز يتم على الحرير أو على الأطلس، في حين نجد أغلب الأقمشة المغربية المطرّزة من القطن أو الكتان. ومثل هذه الرسوم الزهرية يمكن أن توجد على الحرير وكذا على التخشيب المدهون في القصور، كما رأينا ذلك.

وهذه التنميقات ذات الطراز العثماني لم تصل إلى المغرب مباشرة من تركيا، بل إنها وصلت أساسا عن طريق الولايات التركية في إفريقيا الشمالية وخاصة منها الجزائر. وكثيرا ماكان قواد شمال غرب المغرب يقصدون الحكام الأتراك المجاورين بغية الحصول على دعمهم. وهو ماحصل فعلا بالنسبة للخضر غيلان وزاوية الدلاء والباشا أحمد الريفي. وتنضاف هذه العلاقات السياسية والعسكرية إلى ماذكرناه من علاقات تجارية وأسفار الحجيج إلى الشرق وكذا العلاقات التي تربط عن طريق القوافل

البحرية ، بل وحتى تلك الروابط الناتجة عن المساعدة المتبادلة في ميدان الجهاد البحري.

فيمكننا إذن تحديد تاريخ إدخال هذا الطراز من الطرز إلى تطوان في النصف الأول من القرن الثامن عشر. وهي الفترة التي كانت خلالها الروابط بين المرفأين في غاية التوطيد، وهي كذلك فترة شهرة المرفأين في الجزائر العثمانية(111) ولقد أدت هجرات الجزائريين إلى تطوان، وخاصة تلك الهجرة الهامة التي وقعت عقب الغزو الفرنسي في 1830، إلى زيادة رواج هذه الطُّرز.

ونجد تأثيرا عثمانيا آخر في فن الصياغة الذي يختلف من حيث أشكال وتنميق حليّه عن مجوهرات فاس والرباط ـ سلا. ولم تستثن الحياة المنزلية من هذه الاقتباسات العثمانية، ومن بين أماراتها الثابتة تنوق التطوانيين للقهوة الذي يتعارض ونهم المغاربة بالشاي الأخضر. ولقد استوردت تطوان ولمدة طويلة القهوة أكثر نسبيا من الشاي. ويتجلى هذا التأثير أيضا في بعض مصطلحات الأثاث المنزلي كهذه الكلمة التي تنعت القدر الكبير، وهي "المنجار

وهكذا فإن الثقافة، وخاصة هندسة البناء وفن المهاجرين الأندلسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، اغتنت باتصالاتها مع الشرق وعلاقاتها به خلال معظم القرن الثامن عشر.

حياة تطوان الثقافية وإشعاعها

لقد عرفت تطوان تغييرا جذريا في حياتها الروحية تزامن مع انتشار الزوايا فيها، ويعكس هذا التغيير تأثير مدن وجهات مغربية أخرى. ويتعلق الأمر بممارسة نبذت في مرحلة أولى ولكنها انتشرت بعد ذلك وسط كل فئات مجتمع المدينة. وسنذكر من بينها على سبيل المثال الزاوية الفاسية التي كان شيخها أبو المحاسن سيدي يوسف الفاسي الفهري(112)، والزاوية الناصرية التي أسسها الشيخ سيدي محمد بن ناصر الدرعي(113) وكان هناك أصحاب طرق آخرين كالشيخ أبي الحسن علي الجعيدي[وليس الشيخ علي ابن مسعود الجعيدي كما ورد في النص الأصلي.] الذي أسس زاويته في حومة العيون(114). ولقد عاشت في تطوان خلال القرن السابع عشر عدة شخصيات روحية وثقافية كانت على صلة بهذه الزوايا، ونذكر من بينها سيدي الحاج علي بركة الذي كان ينتسب إلى الزاوية الناصرية(115)

ولقد أورد محمد داود في تاريخه ترجمة لأهم الشخصيات الثقافية التطوانية في القرن السابع عشر، ومن بينها ولي المدينة وحاميها سيدي السعيدي. ويتميز الإنتاج الثقافي لهؤلاء بخاصيتين: الطابع الأدبي، فكثير منهم صاغ الكلام نثرا جزلا أو نظما؛ والاتجاه الديني الصوفي، فلقد كانت الزوايا محتكرة للحياة الروحية التطوانية، ففي هذه

الزوايا بدأ تنظيم التعليم. وزارت تطوان شخصيات ثقافية شهيرة من جهات أخرى من المغرب، ومن بينها

* [وليس الشيخ علي ابن مسعود الجعيدي كما ورد في النص الأصلي]

الشيخ أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي الذي قصد تطوان عدة مرات(116). وخلال زيارته للمدينة عام 1083هـ (1672-1673م)، نظم اليوسي، بطلب من مضيفيه، أبياتا شعرية حول موضوع الجهاد.

وكان المجتمع التطواني في القرن السابع عشر قد شكّل نواة ثقافته الخاصة، ولم تتخذ هذه الثقافة، دون شك، شكلها النهائي إلا خلال القرن الثامن عشر، لكن المحيط الحضري الذي غذاها كان قد تجسد في وقت سابق. وازدهرت في تطوان ممارسة التقييد، وساهمت جماعة المهاجرين الأندلسيين بشكل فعال في هذا الازدهار، بيد أن العناصر المحلية أثبتت بدورها حضورها في هذا الميدان، ويشكل القضاء مثالا حياً على ذلك. فلقد ذكر المؤرخ محمد داود في كتابه أسماء حوالي عشرة قضاة من القرن السابع عشر، ومن بينهم القاضي عيسى الخشين [وليس الخشيش كما ورد في النص الأصلي.] (1032 هـ)(117)، وهو أقدمهم بالنسبة لهذا القرن، والقاضي محمد بن سعيد بن قريش الذي تولى القضاء مابين 1080 و1103 هـ (118)، والقاضي موسى الخطيب (عام 1044 هـ)(119) وينتمي القاضي بن قريش لعائلة قامت بدور هام في المجال الثقافي بتطوان. كما أورد صاحب "تاريخ تطوان" بعض الرسوم الموقعة من طرف بن قريش الذي وصفه محمد داود بـ «الفقيه الأجل الأفضل الأكمل القاضي بمدينة تطوان وعمالتها»(120) ومما تجدر ملاحظته هو أن أسماء غير أندلسية كابن قريش والخطيب شغل أصحابها مناصب هامة وذلك منذ القرن السابع عشر. واضطلع بعض أفراد هذه العائلات، كآل الخطيب، بمسؤوليات جسام فيما بعد، كتقلدها منصب الأمين.

وإلى جانب فرضية غييرمو غوثالبيس بوسطو (Guillermo Gozalbes Busto) القائلة بالإرث الأندلسي السائد وبيقائه، والتي لا تجعل من تطوان بنت غرناطة فحسب بل تراها وكأنها بعثٌ للمدينة الأندلسية، وفرضية عبد العزيز السعود التي تقول، عكس سابقتها، بأن مساهمة تطوان الثقافية كانت مغربية محضا، ينبغي التركيز على طابع الحركية الدائمة التي ميزت ثقافة عرفت تطورا مستمرا. وإلى هاتين المساهمتين الأصليتين الأساسيتين والمرتبطتين أشد الارتباط، يجب إضافة المساهمات الخارجية التي تلقتها باستمرار حاضرة كانت التجارة إحدى مقوماتها الرئيسية، ومن بينها نذكر التأثير العثماني إما مباشرة أو بطريقة غير مباشرة عبر الجزائر. ولقد زُيّن عدد هام من أبواب الدور التقليدية بزخرفات حديدية سمّرت في الركن الأيسر أو الأيمن الأعلى، وهي تدل على الأصل الجزائري لأصحابها الذين كانوا

فخورين بتميزهم عن جيرانهم الأندلسيين، بقدر ما كان هؤلاء متباهين بدورهم بجعل الرمز الحديدي الذي يدل على أصلهم الغرناطي بارزا على الأبواب.

ويذكرنا هؤلاء وأولئك بمجتمع تطواني كانت له قدرة كبيرة على دمج الغرباء الذين انصهروا فيه منذ بداية تاريخه. ولقد تميز هذا المجتمع بتجانسه نظرا لكونه عرف كيف يتبنى أو يُكيف العناصر المتباينة التي شكلته. ويتجلى استمرار هذا المجتمع بأشكال شتى، وتعود بعض مميزاته للظهور من جديد عبر القرون. والمجتمع التطواني مجتمع مغلق لأنه كان مهددا من الخارج على الدوام. وهو مجتمع محافظ لأنه أنمى ثروة مادية بفضل أنشطته التجارية. وإذا نُظر إليه من الخارج، يبدو هذا المجتمع مجتمعا مستقلا بذاته، لكن استقلاله الذاتي كان سلاحه السياسي والعسكري الوحيد للدفاع عن وجوده أمام الأخطار الإيبيرية أو المحلية المحدقة به خلال فترات تاريخية تميزت بشغور السلطة السياسية المركزية.

وبالرغم من التحولات الجذرية التي عرفها تاريخ تطوان على مرّ القرون، فإن الحاضرة تمكنت دائما من التغلب على الصعاب بفضل قدرتها الهامة على الحفاظ على استمرارها من خلال إبداعها السياسي والثقافي والفني.

بداية المصاعب المنذرة بالانحطاط

قوة اقتصادية مهددة

في نهاية القرن الثامن عشر، بدأت تطوان تعيش انحطاطا بنيويا بطيئا تعدى وقعه تلك التقلبات الظرفية التي تغلبت عليها المدينة دائما. ولقد ظهرت بوادر هذا الانحطاط الأولى خلال أعوام 1770-1780 في أعقاب القرار الذي اتخذه السلطان سيدي محمد بن عبد الله في 1770، والقاضي بطرد القناصل والتجار الأوربيين متذرعا بحجة واهية. ورجع هؤلاء بعد ذلك في عدد قليل، لما سمح لهم السلطان بالإقامة من جديد في تطوان سنة 1778، وهو رجوع لم يخل من محن. وأقام هؤلاء في طنجة التي تجمع داخل أسوارها في ظرف حوالي خمس عشرة سنة، مجموع الممثلين الأوربيين المقيمين في المغرب(121) وهكذا بدأت تطوان تفقد، لصالح جارتها التي أصبحت منافسة لها أكثر فأكثر، دور العاصمة الديبلوماسية الذي غالبا ما اضطلعت به فيما مضى.

ولقد تأثرت حركة تطوان التجارية بهذا التغيير، وأستحوذ ميناءا العرائش وطنجة على حصة متزايدة من تجارة تطوان. وأدى بناء ميناء الصويرة (1764-1772)، والامتيازات التي خص بها، وإجبار السلطان تجار تطوان على الاستقرار في الصويرة، إلى تحويل جزء من تجارة أقصى شمال المغرب نحو الغرب، وتقلص المجال الداخلي للتجارة التطوانية. وكان بروز الموانئ الأطلسية والتحول الكبير الذي عرفته القوى الاقتصادية الشمالية الجنوبية نحو الغرب، هذه الثورة الكبرى التي ميزت تاريخ المغرب المعاصر بدأت على حساب تطوان، ذلك المنفذ الكبير الذي ظل لمدة طويلة منفذ الشمال الوحيد. وكان تطور الجهاد البحري وتراجعه التدريجي إلى غاية زواله النهائي قد تم على حساب تطوان. ولم تستفد الحاضرة في الواقع من معاودة نشاط الجهاد البحري خلال عقدي 1820-1830.

ولقد تقهقرت تطوان من المرتبة الأولى بالنسبة للموانئ المغربية في سنوات 1760 إلى المرتبة الثانية خلال سنوات 1780، ثم إلى المرتبة الثالثة في العقود الأولى من القرن التاسع عشر. وهكذا أصبح انحطاط تطوان البحري أمرا محتوما، وصارت منافع المرسى وخاصة مصب وادي مرتيل عوائق مع ترمّل مصب النهر وازدياد حجم السفن. وكان هذا الانحطاط النسبي بلا شك بطيئا وتتخلله فترات انتعاش. فالحرب مابين 1793 و 1814، والحصار الإنجليزي، مكنا سفن تطوان من

فرص سانحة لتعويض السفن الفرنسية والإيطالية[122] ولم يحدث أبدا أن ارتادت السفن الصغرى المغربية، ومعظمها من تطوان، الموانئ الإسبانية بهذا القدر[123].
وهكذا ففي ظرف اثنتي عشرة سنة، من 1797 إلى 1808، تم إحصاء واحدة وتسعين سفينة دخلت إلى ميناء برشلونة، وثلاث وأربعين إلى سَلُو (Salou) و(لكن هذا العدد الأخير لايشمل إلا ثلاث سنوات فقط)، أي مائة وأربعة وثلاثين مركبا في المجموع، بمعدل حوالي عشر سفن في كل سنة. غير أن هناك سفنا أخرى كانت تأتي إلى جنوة ولقرنة ولشبونة وقادس، وجبل طارق بطبيعة الحال كما هو الشأن دائما وأكثر من أي وقت مضى.

ولقد جنت الحاضرة أرباحا هامة من عملية تموين جبل طارق وتزويد الأسطول الإنجليزي بما يحتاج إليه، الشيء الذي مكن من إنماء الثروات وجمع الأموال. وبرزت في أوليغارشيا العائلات التطوانية العتيقة حكومة أثرياء لها إمكانات هامة وأعمال مزدهرة اشترك في تسييرها المسلمون واليهود. ولقد أغنت موجة الرخاء بورجوازية عرفت كيف تتغلب على الأزمات بل واستفادت منها. وهكذا فخلال الفتور العام الذي عرفته التجارة المغربية مابين 1800 و 1816، بدت تطوان وكأنها الاستثناء. وتعتبر هذه الأعوام، في هذا الانحطاط البنيوي، انتعاشا قصير الأمد.

ومنذ هذه الفترة، ستجد تطوان نفسها في مواجهة منافسة طنجة وارتقائها الذي لايقاوم. وأصبحت طنجة مقر إقامة كل القناصل العامين الأوربيين، والموضع الذي تروج فيه الأخبار باستمرار وبوفرة أكثر. وبعد نهاية النزاعات البحرية وعودة حرية عبور المضيق، استرجع موقع طنجة كل أهميته، واقترن تزايد حاجيات المدينة بتزايد الوسائل. وأدى تأسيس خط بحري يربط طنجة بجبل طارق بواسطة فُلك رقاقيص إلى تحويل تلك العلاقات الممتازة التي ربطت الصخرة البريطانية بتطوان إلى جارة هذه الأخيرة ومنافستها.

وبقي نشاط المدينة "الصناعي مهما، وشغَّل حوالي أربعة آلاف عامل، وهو عدد هائل بالنسبة لمدينة بلغ عدد سكانها آنذاك مابين خمس وعشرين ألفا وثلاثين ألف نسمة. ويضاف إلى ماذكر انتعاش قصير وظرفي مرتبط بالدور الذي قامت به تطوان كقاعدة تموين للقائد الجزائري الأمير عبد القادر[124] فلقد كان هذا الأخير يتزود بالأسلحة والذخيرة والمواد المصنوعة الضرورية في جبل طارق حيث كان له أعوان. وكانت هذه السلع تمر عبر تطوان، وبصفة عامة عبر فاس بعد ذلك، حيث يمر بعضها عبر فندقي النجارين والتطوانية.

ويمثل العقد الممتد مابين 1835و 1846 آخر عصر زاه عرفته الملاحة قبل انحطاطها المحتوم، ومازال يدخل إلى الميناء آنذاك مابين خمس وثلاثين وخمس وستين سفينة في السنة. وتبرز دراسة الحمولات استمرار مميزات أصلية قديمة في هذه

التجارة، كزيادة الواردات على الصادرات، وحركات العملة التي اكتست أهمية لامثيل لها، وكذا الحصة الهامة للمادة الخام المرتبطة بالصناعة في المشتريات. وبالمقارنة مع الميناءين "الجديدين"، الجديدة والدار البيضاء خاصة، تبدو حركة ميناء تطوان التجارية نقيضة تامة لنشاط هذين الميناءين، بيد أنهما نوا مستقبل.

وكانت الملاحة البخارية التي بدأت بارتياد الشواطئ المغربية خلال أعوام 1845ـ 1850، ليتعمم انتشارها مابين 1850 و 1865، قد ساهمت في ازدهار المراسي الطبيعية. وكانت السفن الشراعية تحبذ مصاب الأنهار حيث كانت في مأمن من عصف الريح وتلاطم الموج، في حين كانت البواخر قادرة على التحكم في سيرها عندما تَرْبُؤُ أحوال الطقس، فمصاب الأنهار لم تكن تجذبها، بل على العكس إنها كانت تنفّرها. ولقد نزل مرفأ تطوان إلى الرتبة الرابعة من بين الموانئ المغربية في سنوات 1840، ثم إلى الرتبة الخامسة خلال سنوات 1850.

وكانت أولى القنصليات الأوربية قد أسست في تطوان في منتصف القرن السابع عشر، وباستثناء القنصلية الإسبانية، ستحول كل هذه القنصليات إلى نيابات قنصلية، ثم ستزول في منتصف القرن التاسع عشر وستعوض بقائمين بالأعمال القنصلية من اليهود المغاربة.

ومن حالة لأخرى تبرز علامات تحول، هذا التحول الذي بعد أن أوصل المدينة إلى أوجها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، سينذر بانحطاطها. ولم تقم الحرب الإسبانية المغربية (1859-1860) إلا بتعجيل تغيير مرتقب، وهو تغيير عميق سيشمل الحياة السياسية أيضا.

الحكم الذاتي المحدود

في الظاهر وفي إطار علاقة غامضة تقوم على البيعة وعلى الحكم الذاتي، كان الحكم المحلي،الذي تجسده عائلة كبرى ذات سلطات وراثية، في مواجهة دائمة مع السلطة المركزية للسلطان. وفي الواقع، يستشف من وراء الاستمرار الظاهر لهذا التوازن الدقيق، رجحانٌ مستمر في صالح المخزن حد فيما بعد مجال وطبيعة "الحكم الذاتي التطواني

ولم يكن لآل أشعاش الذين اضطلعوا أبا عن جد بأعباء وظيفة حاكم تطوان خلال سبعين عاما تقريبا، لاحُنكة ولاحرية العمل التي ميزت العائلات الثلاث الكبرى التي أنشأت الحاضرة و وسمتها بسمات شخصيتها القوية، ويتعلق الأمر بآل المنظري وآل النقسيس وآل الريفي. وكان آل أشعاش قد عُينوا في مناصبهم من لدن السلطان، وكانوا بالتالي خاضعين له، خاصة وأن السلطانين الشهيرين مولاي سليمان (1822-1792)، ومولاي عبد الرحمن (1823-1859) كانا قد قويا السلطة المركزية.

وكان مؤسس "أسرة أشعاش الحاكمة"، وهو عبد الرحمن بن عبد الخالق أشعاش[125]، قد ظهر خلال فترة خلو العرش الدامية، في عهد مولاي يزيد (1790-1792). وكانت الأراضي التي استتب فيها أمر هذا السلطان هي بلاد قبائل جبالة التي قدمت له الدعم[126] ومن بين أولى الإجراءات التي اتخذها هذا الأخير بُعيد البيعة، إطلاق الجند على حي يهود تطوان واستباحتهم[127]. وشنت القبائل المجاورة خلال سنتين، مجموعة من الهجمات على الحاضرة[128] ولقد وطّد عبد الرحمن أشعاش حكمه كمسؤول عن الدفاع عن المدينة ومُعيد للنظام فيها. ويُروى أنه كان وضيع الأصل وأنه كان حَمَّارا في بدايته على حد مايزعمون. ولقد تمكن من فرض نفسه بفضل مزاياه كمحارب وحاكم. وعن شدته بصفة خاصة، يذكر التاريخ الأخباري أنه أمر بضرب أعناق ألفي أسير من جبالة وتعليق رؤوسهم على أسوار باب الجياف[129]

وتقلبات حكم هذا القائد غير معروفة على وجه التمام. ويبدو أن أيام حكمه المعارض والمنافس عليه لم تكن موصولة. فهو لم يفرض نفسه حقا إلا بين 1790-1789 و 1792، ثم عزله السلطان الجديد (مولاي سليمان)[130]. ولقد أعيد إلى منصبه في 1794-1795[131]، ليعزل ثانية سنة 1795 ويسجن بعد نتف لحيته وأداء ، حسب مايُروى، غرامة قدرها مائة ألف مثقال[132]. وأعيد لأشعاش اعتباره بعد ذلك بحيث نجده في طنجة في يونيو 1803، حيث استقبل الرحّال الاسباني باديا (Badia) وقد يكون أشعاش تقلّب بعد ذلك في وظائف متعددة في الرباط[133] قبل أن يستعيد منصبه القديم كحاكم تطوان، وهذه هي الولاية الثالثة والأخيرة له[134] وسيعوَّض سنة 1808 بحاكم آخر هو العربي بن يوسف[135]. ولقد اختلفت أهمية منصبه بحسب الظروف، فهو تارة ينال حظوة سيده وتارة يفقدها، وامتدت سلطته في إحدى الفترات حتى طنجة لتشمل المدينة وناحيتها.

وتنطوي تقلبات خدمة أشعاش التي قادته من ممارسة سلطة جهوية قوية إلي غياهب الحبس على عدة عبر. فتقلبات هذه الخدمة تتعارض مع السلطة شبه المستقلة التي مارستها العائلات الكبرى السائدة في الماضي. وكان على السلطان أن يحسب حسابه لهذه العائلات التي كانت تقف في وجهه أحيانا. فهو فرض نفسه على عائلة استمدت شرعيتها من إرادة السلطة المركزية. ولم يحل استرجاع المخزن للأموال من أشعاش، كلما عُزل، دون تكوين هذا الأخير لثروة هائلة. وكانت عملية توارث منصب قائد المدينة تتم بإحكام، وتبين استمرار العائلات الكبرى الحاكمة عبر الفتن التي أثارتها صراعات المطالبين بالعرش ومواجهات القبائل.

ولقد ورث عبد الرحمن أشعاش في منصبه ابنه محمد الذي كان يشغل قبل ذلك منصب أمين السلطان في طنجة، وذلك سنة 1824[136] وقد يكون محمد أشعاش

قد اشترى منصبه بخمسين ألف قرش (مئتان وسبعون ألف فرنك ذهبي). و وجد هذا الأخير مدينة أصابها الضعف وقد زعزعتها بعض الشيء هزة مزدوجة، سياسية واجتماعية. وعند نهاية ملك مولاي سليمان، بايع أهل تطوان أحد الطامعين في العرش، المولى سعيد[137]، ولم يجعلوا حدا لعصيانهم إلا بعد معارك حامية وحصار تام، بحري وبرّي[138] وانتهت هذه المحن القاسية والطويلة بخضوع مذل[139]

ولقد كانت فتنة 1821-1822 مليئة بالمعاني والدلالات. فهي تدل على معارضة المدينة المعهودة وعلى نزوعها إلى "الاستقلال الذاتي وتحفظها من السلطة المركزية. ولم يكن تحالف فاس البالي وتطوان في العصيان عرضيا، فهذا التحالف يبين حدود تأثير السلطة المركزية وفاعليتها. وكان على تطوان أن تخضع وتطيع[140]. ولقد عانت المدينة من الفتنة المذكورة بسبب المعارك، وتعطل تجارتها تعطلا شبه تام خلال ثمانية عشر شهرا، وهجرة بعض أعيانها الذين استهواهم جبل طارق أو طنجة.

ومما زاد في شدة البلاء ما أصاب المدينة، قبل أن تتمكن من إصلاح أحوالها، من فتك الوباء ومجاعة 1825[141] وكان الطاعون قد اجتاح المدينةوناحيتها في 1798-1799، و1809 - 1810، ومن جديد في 1818-1819. ولقد زعزع هذا الاجتياح الرابع، في ظرف ربع قرن، أسس تنظيم المدينة الإجتماعي، وأدى إلى هرب البعض وكذا إلى إثراء أكثر أهلها دهاء إثراء مضاربيا. واسترجع أشعاش نفوذه على المدينة وحكمها حكما قائما على السلطة والصرامة والأبهة إلى أن توفي سنة 1845[142] وقاد ابنه الحاج عبد القادر بن محمد أشعاش سفارة متألقة إلى باريز في 1845-1846[143]. وعُزل سنة 1851 ثم سجن في فاس[144]. وكالعادة، صودرت أمواله أو الظاهر منها على الأقل[145]، وظلت بملكه ثروة هامة لما نصّب حاكما على تطوان في 1862 ليستبدل من جديد سنة 1864.

ومنذ تلك الفترة، بدأ عهد جديد من تاريخ تطوان، عهد انحطاط المدينة وفقدانها لمميزاتها، وهو الانحطاط الذي يرمز إليه الاحتلال الاسباني للمدينة مابين 1860و 1862، حيث زادت أحوال المدينة تدهورا، ووضع بذلك حد للحلم الأندلسي الذي رعته الحاضرة خلال مايقرب من أربعة قرون.

التحصينات والقصور، 1780-1860

لقد تعددت أوصاف المدينة في تلك السنوات التي انفتح فيها المغرب للمشاريع التجارية الأوربية. وأدت الطموحات والعمليات العسكرية الفرنسية والإنجليزية والإسبانية إلى توالي الإستكشافات ووضع التصاميم. ويمكننا ازدهار الخرائط والرسوم والصور الشمسية خلال الحرب الاسبانية المغربية (1859-1860) واحتلال المدينة (1860-1862)، بالنسبة لمنتصف القرن، من مرجع هام لمقارنة حاضرة

تلك الأعوام والمدينة الحالية، كما يمكننا هذا المرجع من العثور في هذه المشاهد التي ترجع إلى منتصف القرن التاسع عشر، على صور الأبنية الأثرية التي عفت فيما بعد.

وكانت تطوان تشتمل منذ عهد قريب على العديد من الرياض داخل أسوارها، وهو عدد يفوق بكثير عدد روضها حاليا(146) ولقد أشرنا سابقا إلى هذه الوفرة، وإلى تلك العلاقة بين المبني والمغروس، وقصور المدينة ودور الأرياف؛ وهي سمة ميزت الحاضرة عبر القرون وإلى غاية الانفجار العمراني. ولقد حوفظ على بعض الرياض الواقعة داخل الأسوار في أطراف المدينة، لكن أغلب هذه الروض بنيت، وخاصة تلك الواقعة بين باب العقلة وباب الجياف، وبين الجنوي والحافة. أما الحيّز الذي ترك فارغا في حي العيون، بين باب النوادر وباب التوت، فإنه كان يستعمل عادة لإيواء ألوية الجيش الخفيفة. ولقد ظل حي الطلعة، وهو مسطح مائل تشرف عليه القصبة، شاغرا بدوره إلى غاية نهاية القرن التاسع عشر.

ويطرح تقسيم مجال المدينة القديم إشكالا، فهذا المجال كان مقسما بين مناطق كثيفة البناء وأخرى مخصصة للرياض. فهل كان هذا التنظيم مرتبطا بتهديدات القبائل المجاورة؟ بحيث تكون أجزاء المدينة المعرَّضة أكثر للأخطار الخارجية قد هجرت في صالح الدور المحمية أحسن بالأسوار في الأحياء ذات الكثافة السكانية المرتفعة.

وكانت الأسوار قد رممت بأمر من السلطان مولاي سليمان، ذلك الباني الكبير الذي كان يولي اهتماما للمدينة التي تدين له بعدة مباني. ثم شيدت بعد ذلك تحصينات جديدة بأمر من مولاي عبد الرحمن، فهو الذي أمر أشعاش ببناء باب العقلة والحصن (1830) حيث يوجد المتحف الإثنوغرافي الحالي. وخلال حكم الحاج أحمد الحداد (1851-1859)، تم بناء حصن آخر، وهو البرج الجديد الواقع بين باب المقابر والقصبة، كما بنيت كذلك ثكنات جديدة وأربع قناطر حول تطوان، واحدة منها ما زالت قائمة إلى اليوم. ولقد قلدت هذه المباني العسكرية الطُّرُز المعمارية القديمة، ويعتبر هذا البناء على نمط الطُّرُز القديمة سمة تميز معظم التحصينات المغربية التي ترجع إلى الفترة المدروسة.

وكان الحيّز القديم الواقع جنوب مشور أحمد الريفي وفي موضع فدان لوقش، والذي استعمل كمذبح (الگورنة) و سوق و ساحة للاستعراض ولألعاب الفروسية، وإن انتقص حجمه بسبب المباني الإسبانية (القنصلية والبعثة الفرانسيسكانية بعد 1860 ومقر الإقامة العامة الإسبانية بعد 1913)(147)، قد احتفظ ببعض أنشطته التي ترجع إلى عهد قديم. فلقد ظل هذا الحيّز موضعا للأسواق الأسبوعية التي تعرض فيها منتجات الأرياف. وغرب الفدان بنيت في بداية القرن التاسع عشر عدة فنادق وسوق للحبوب.

وظل حي المصلى القديمة بدوره خاليا من البناء إلى غاية نهاية القرن التاسع

عشر. ويدل إسم هذا الحي على أنه كان المجال الخالي في المدينة والمستعمل لصلاة يوم العيد. وكان هذا الحي من بين الأحياء الأولى التي بنيت فيها مساكن القادمين الأوربيين الجدد، وهو يحد بالملاح أو حي اليهود. وكان بناء الملاح الجديد والجامع الكبير ـ وقد تكون بين بناءيهما علاقة ـ من بين الأعمال الهندسية العظيمة التي خلفها مولاي سليمان.

وبعد تخريب جند مولاي يزيد لحي اليهود الأصلي في حومة البلد سنة 1790، أمر مولاي سليمان ببناء حي جديد لليهود في الحقول والبساتين الواقعة جنوب جنة الفدان. ويكشف نص الظهير الذي وصلنا والذي أنشيء بمقتضاه هذا الحي، عن روح وكيفية تأسيسه:

«الحمد لله وحده

نسخة كتاب شريف من السلطان مولاي سليمان نصه:

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما

إلى خديمنا الأرضى القائد الحاج عبد الرحمن بن عبد القادر أشعاش أعانكم الله والسلام عليكم ورحمة الله، وبعد فموجبه إعلامكم أننا بهذا الظهير قد عينا الملك المعروف بالرياض من تطوان، والذي هو من أملاك المخزن بجميع حدوده، ومنحناه ليهود تطوان ليقيموا فيه الملاح ويبنوا فيه دورهم وحوانيتهم، وعلى كل من يملك دارا في البلد منهم، ان يبيعها للمسلمين ويبني بثمنها دارا أخرى في المكان المعين سابقا.

فنامركم بتنفيذ ذلك دون زيادة ولانقصان، ومن خالف تنفيذ أمرنا فعاقبوه اشد العقاب، كما نامركم أن تجمعوا جميع علماء تطوان ليشهدوا باننا قد أنبناكم لتعيين المحل الذي يخصص لإقامة ملاح اليهود، وليعلموا أن هذا الامر إنما هو لصالح الجميع. واجمعوا البناءين ليعينوا لكل يهودي مساحة الارض التي تنوبه لبناء داره، في فاتح جمادى الاولى عام 1222».

***

«الحمد لله وحده

لما منح سيدنا أيده اللّه يهود تطوان الملك المسمى بالروض لبناء ملاحهم، وأصدر بذلك أمره بالظهير المنصوص أعلاه، وملكهم ذلك المكان، وأمر خديمه الارضى القائد السيد الحاج عبد الرحمن أشعاش بتبليغهم هذا الأمر، جمع العلماء وقريء عليهم الظهير السلطاني أمام دار القائد، وأعلم أيضا من بين اليهود الحزانين: ميناحيم ناهون، وميسيس ليفي، وخوداس أبو درهم، وبيدال اسرايل، وخاكوب بن سعدون، واليهود، سلمون قرياط، وخوداس بن زكين، وميسيس طاوريل وميمون دي

هرون بن شتريت، وميسيس اسرايل وموشيطو أبو درهم، وميسيس خلفون، وسالومون سرفاطي وغيرهم، وأحيطوا علما بما تضمنه الظهير السلطاني، فوعدوا بامتثال ذلك وتنفيذه في أقرب وقت ممكن، وبعد ذلك انتقل الباشا وجميع المذكورين إلى المكان المذكور، وطافوا به من جميع الجهات، ووقع توزيع الأراضي على اليهود لبناء دورهم وحوانيتهم وحثوا على القيام بذلك عاجلا دون تهاون، فوعدوا بالامتثال، وتنفيذا لذلك وزعوا الارض فيما بينهم بالعدل دون إضرار بحق الغير، وكان التوزيع بمحضر الباشا، ووقع الشروع في حفر الأسس وابتدأ العمل في البناء ونفذ أمر السلطان في ضمن الاجل المحدد في الظهير، وحرر هذا في فاتح شهر المحرم عام 1225» [148]

واشتريت الأراضي من آل العطار والرزيني وغرسية واللبادي ومدينة، وهي العائلات الأندلسية التي كانت تشكل أوليغارشية سادة الأعيان. وكان الحي المذكور الذي شُرع في بنائه في غشت 1807، وفرغ منه فيما يبدو سنة 1809، يمتد على خُمس مساحة المدينة. وهذا مايدل بما فيه الكفاية على أهمية عدد السكان اليهود الذي، إذا أخذنا بعين الاعتبار اكتظاظ الملاح السريع بالسكان، كان يمثل حوالي ربع عدد السكان الإجمالي الذي كان يبلغ حوالي خمسة وعشرين ألف نسمة. وسيبقى عدد حوالي ستة آلاف يهودي الذي تؤكده معظم المصادر ثابتا تقريبا، ولن يرتفع إلا قليلا خلال القرن التاسع عشر. ولقد كانت هجرة هؤلاء اليهود نحو الجزائر وأمريكا اللاتنية والموانئ الأطلسية المغربية تعوض بوصول يهود داخل المغرب باستمرار.

ويُروى في التاريخ الأخباري أن الحي الجديد بُني بمساعدة مهندس معماري برتغالي. ويبدو التأثير الأوربي جليا في تصميمه التربيعي ذي الزوايا القائمة. وبالرغم من أن معظم دور الحي تشتمل على أفنية داخلية، وأن تلك التي بنيت في البداية لم تكن تختلف عن نظائرها المسلمة، فإن الطابع الأوربي أصبح ظاهرا أكثر فأكثر في ملاح القرن التاسع عشر. وتُبرز هذا التأثير بعض المميزات الأوربية كالنوافذ الخارجية المطلة على الشُّرف ، وأطر الأبواب الكلاسيكية الجديدة، والتنميق بمعجون المرمر، والبلاط المستوحى من بعض الأقاليم الإسبانية. وكانت البيع كثيرة إذ بلغ عددها ست عشرة بيعة في منتصف القرن.

الهندسة المعمارية الدينية

لقد غير موضع الملاح حتى لايُنَجّس قربه الجامع الكبير الذي أمر مولاي سليمان ببنائه في نفس التاريخ. وشيد الجامع المذكور سنة 1808 فوق موضع

مسجد ومدرسة سابقين، وهو يحد بالحي اليهودي المهدم[149]. والجامع ومئذنته رحيبان، ولم يُر لحجميهما بعد نظير في تطوان. ولقد تم التخلي عن البناءين القديمين، وكان بناؤهما القائم على أعمدة أسطوانية دقيقة تعلوها قباب، يتميز بالخفة، للحصول على بناء أكثر علوا. وكان ضروريا الاعتماد على عمد ضخمة ومستطيلة الشكل حتى تستحمل مبنى أكثر اتساعا.

وشأنها شأن مآذن المساجد التي بناها مولاي سليمان والموجودة في مدن أخرى، فإن مئذنة الجامع الكبير بتطوان تتميز بعدم تنميقها ببلاط من الفسيفساء، فهي منمقة بقرميد عريض ومسطح يحتويه إطار من الآجر. ويمكن مقارنتها بمئذنة جامع الرصيف بفاس أو بمئذنة جامع الكبير بمراكش.

وفي نفس الفترة صدر أمر سلطاني آخر يقضي ببناء السوق الفوقي. وتمثل الزاوية الريسونية التي [بنى قسمها الأول « سيدي علي ابن الولي الصالح سيدي محمد بن علي بن ريسون الحسني العلمي»، و بنى القسم الثلني نجله الشيخ سيدي عبد السلام،](150) ووسّعها أولاد الحاج عبد الكريم بريشة سنة 1898، طرازا معماريا تطوانيا أكثر محلية، لاوجود له في المغرب إلا في الأطراف الشمالية من البلاد. ويخلد هذا المبنى الطراز المعماري العثماني الذي أدخل إلى تطوان عند بناء جامع الباشا (1737-1738). ومئذنة الزاوية المذكورة المثمنة الأضلاع وقد لُبّست بصفائح من الفسيفساء.وتعلو قبر الصالح وقاعة الصلاة قباب واسعة.

وحكام آل أشعاش هم الذين أعادوا بناء زاوية سيدي عبد الله الحاج القديمة ومسجدها في الفدان سنة 1834، والمئذنة الحالية عبارة عن إضافة ترجع إلى 1930. وعرف المغرب في ذلك العهد موجة تقديس للشرفاء أو ذرية الرسول، وتكاثرت الزوايا الصوفية حول قبور الصالحين وخلفهم. ولم تخالف تطوان هذا التيار الديني بتقديسها لسيدي علي بن ريسون وسيدي عبد الله الحاج. وبنيت زاوية عيساوة في 1785، والزاوية الحراقية في 1828-1829، والزاوية الخلنجية في 1840[151] وبعض هذه الزوايا كالحراقية، عرفت عدة عمليات إعادة بناء وتجديد في وقت لاحق.

قصور ودور العائلات الأندلسية

اعتمدت هندسة بناء دور ذلك العهد مقاييس كبيرة كالمقياس الجديد الذي اعتمد في بناء الجامع الكبير سنة 1808. ولقد مكن تهديم وتغيير موضع حي اليهود من بناء منازل غاية في الرحابة ومشتملة على رياض في حي البلد المركزي، ونذكر منها منازل عائلتي الرزيني وغرسية، وبعدها في زمن لاحق من نفس القرن، منزل آل بريشة. وتعتبر أفنية هذه الدور استمرارا للطراز المعماري المعتمد في بناء قصر المشور في القرن الثامن عشر، فكل فناء منها تحيط به اثنتا عشرة حنية، ثلاث حنايا من كل جهة

من جهاته الأربع، وتتوسطها حنية وسطى أكثر اتساعا. غير أن علو هذه الحنايا واتساع دائرتها يفوق علو واتساع نظيراتها في الفترات السالفة. ولقد وازى هذا التجديد اتساع السطوح المنمقة بالزليج التي انتشرت منذ هذا العهد لتشمل دائما تبليط أراضي الدور وتلبيس جدرانها. وكانت صناعة الزليج آنذاك من أهم صناعات تطوان، وكان الزليج ينتج في معامل الخزف خارج باب النوادر، وبعض ماتبقى من هذه المعامل يمكن أن يُرى في المكان عينه إلى اليوم.

ولقد جذبت فترة الازدهار التجاري - التي كانت قصيرة ولكنها زاهية (1800-1814) و (1830-1845) - التجار وسبّبت في تكوين ثروات كبرى وتشييد أبنية أخرى. هذا ومن بين الدور الفخمة في هذا العهد، تتميز دور تجار فاس الذين نزلوا في حاضرة تطوان خلال ازدهارها البحري من جديد في عهد مولاي سليمان بين نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر، ونذكر من بين هؤلاء على سبيل المثال عائلة بوهلال. ولقد أتت آخر كبات المهاجرين المتمثلة في هجرة الجزائريين الذين فروا من الاحتلال الفرنسي بعد 1830، بجماعة من الأعيان الذين استقروا في المدينة وعاشوا فيها أحيانا عيشة ترف كعائلة بن شطاب(152)

وهذه البيوتات الكبرى الأخيرة تحمل طابع تأثير فن العمارة الفاسي المتعارض مع الطرازالمعماري التطواني الأصلي، والذي يتميز بأفنية أصغر وتنميق يطغى عليه الخشب المنقوش أو المطلي وكذا معجون المرمر.

الفنون الأندلسية

لقد ازدهرت صناعة الجلد في عهد مولاي سليمان. وكان حي الخرازين بكامله مختصا في هذا النشاط الصناعي التقليدي والتجاري، وكان يشمل دبغ الجلد وصبغه وتطريّته. وكانت أعمال الإتمام والتطعيم والطرز تتم في الأحياء المجاورة. وكانت هذه المنطقة من المدينة، وهي عبارة عن متاهة بكل معنى الكلمة، تشتمل على مالايقل عن مائتي حانوت صغير، وكان كل حرفي ينجز بنفسه جميع مراحل الصنع بدون أن يُقسم العمل. وحسب أوصاف تلك الفترة وصورها، فإن عددا كثيرا من أزقة الحرفيين والتجار وكذلك بعض الساحات الصغرى كانت تغطيها الكروم الظليلة التي كانت تستطاب خضرتها وظلالها.

وكانت "البلاغي المصنوعة من الجلد تشكل جزءا من صادرات تطوان التقليدية نحو بلاد المغرب الأخرى، وبلاد المشرق وإسبانيا. وكانت قبائل جبالة تتزود في تطوان ليس بالبلاغي فحسب، بل كانت تتزود فيها أيضا بالخرائط والحزائم والسروج. وكانت المنتجات الجلدية المطعمة بخيوط ذهبية وفضية، والأرائك الجلدية تشترى خاصة من طرف زبائن الحاضرة الأثرياء وأعيانها. وكان اليهود مختصين في

تنميق الجلد والمخمل بخيوط الذهب والفضة. وكانت نماذج هذه المنتجات تصنع باستمرار ويتطلب صنعها وقتا طويلا، كما تشهد على ذلك محفظة تطوانية ترجع إلى 1761 وتوجد ضمن مجموعة إنجليزية.

وهناك عدة أشياء أخرى كانت تشكل إنتاج الصناعة التقليدية ذات الطابع الفني في المدينة كالزرابي والأسلحة والأثاث الخشبي المدهون والفخاريات. وكانت شهرة هذه المنتجات تنافس نظيراتها الفاسية. إلا أن الأسلحة النارية والأسلحة البيضاء كانت تعتبر وكأن لامثيل لها. وكانت أخامص البنادق تطعم بالفضة والعاج، وبعض هذه الأخامص كان يُدمشق، واستمر ذلك حتى نهاية القرن التاسع عشر وكان السلاح الأبيض يتكون من "السبولة"، أو السكين القصيرة والمستقيمة النصل، و "الخنجر ، وهو سكين كبرى تصنع للتزيين خاصة، و "الكُويْة" أو المدية العقفاء الرأس.

وكانت صناعة الحرير بدورها صناعة قديمة كما سبق وأن أرينا ذلك، سواء تعلق الأمر بالحرير الذي كان ينتج محليا بفضل أشجار التوت في المدينة وأرباضها، أو بالحرير المستورد أكثر فأكثر على شكل حرير خام من الشرق الأدنى وإسبانيا في بادئ الأمر، ثم من فرنسا بعد ذلك. وظهر نزوع إلى تعويض نماذج القرنين السادس عشر والسابع عشر الأندلسية بالمطرزات التركية. ويصعب علينا تتبع التطور والتحولات التي عرفتها هذه المنتجات، فأقدم الدلائل التي تم الحفاظ عليها لاترجع إلى ماقبل نهاية القرن الثامن عشر. وبالنسبة لهذه الفترة وبداية القرن التاسع عشر، كانت الصيغة الأكثر تميزا لهذا الفن في تطوان، هي باقة الزهور المتعددة الألوان داخل إطار على شكل قوس قوطية. وكانت أنسجة الحرير وكذا أنسجة القطن والكتان التي كانت الزراعة المحلية تنتج جزءا منهما، تباع كالعادة في القيسارية.

ولم تصمد هذه الصناعة النسيجية التقليدية ذات الطابع الفني إلا بصعوبة أمام المستوردات الأجنبية التي فرضت نفسها فيما يخص التموين بالمادة الخام، ثم فرضت نفسها بعد ذلك بالنسبة للمنتوج المنجز. وفي هذا الميدان كما في سائر جوانب الحياة التطوانية، السياسية والاقتصادية والاجتماعية، يرجع الانكسار الأكبر إلى حرب 1859-1860 والاحتلال الاسباني للحاضرة من فبراير 1860 إلى ماي 1862. وتعتبر الحرب والاحتلال المذكوران بعد بوادر الانحطاط الأولى التي ظهرت منذ عدة عقود، بداية لنهاية عالم خاص، وهو عالم تطوان التقليدية بواقعها وأساطيرها وأحلامها الأندلسية.

من عالم لآخر. أعوام العقد السادس من القرن XIX

يعتبر تاريخ 1860 التاريخ الفصل. ففي بضع سنوات تسارعت أحداث تحول بدأ قبل التاريخ المذكور. ولقد قذف هذا التحول الذي لايرتد تطوان التقليدية إلى العالم الحديث. وكان قصف طنجة وهزيمة إيسلي سنة 1844 قد أظهرا فجأة ضعف المغرب وقدم بناه العتيقة قبالة الديناميات الأوربية الجديدة. ألم تكن هزيمته تلك أولى هزيمة مُني بها منذ ماينيف عن ثلاثة قرون؟ وفجأة تجلت، مع انقلاب القوى، ضرورة إعادة النظر في النظام القديم. واضطربت العقول، وكان السؤال المطروح وقتئذ هو : هل يجب الإصلاح أو إعادة التأسيس من جديد؟ وكان هذا السؤال الأكبر الذي مافتيء يحير العالم الإسلامي، يطرح نفسه على الخاصة التطوانية.

فهذه الخاصة ما لبثت أن أدركت الانحطاط الموعود، وهاهي تحس الآن بقدوم الثورات الوشيك الإتيان. ولقد ولّدت الصعوبات والعلاقة الجديدة بين الجماعات أزمة هوية. ولم تُعوض جيآت سكان القرى إلى المدينة ـ وكثير منهم لم يعد إلى دياره ـ عند كل أزمة من الأزمات الكبرى التي كانت تشتد عند اقتران المجاعة بالوباء، رحيل بعض مياسير المسلمين نحو طنجة أو جبل طارق، ورحيل اليهود نحو منطقة وهران. ولم يعد اليهود كما كانوا تماما، فلقد تغيرت أوضاعهم وأصبحوا أكثر عددا وغالبا أكثر فقرا، ولم تعد عيشتهم مرتبطة بحياة الحاضرة وسكانها، وبدأوا يتطلعون إلى أوربا حيث وجدوا مدافعين عنهم. وكان بعضهم متأثرا بتجدد الصوفية اليهودية ومتوهما الرجوع إلى أرض الميعاد. وكان ممثلو الدول الأوربية يتدخلون أكثر فأكثر وبكل ثقلهم في شؤون الحاضرة. وهكذا أدى الأمر والتهديد الفرنسيان إلى إقالة أشعاش في 1851. ولقد شكل المحميون بالحمايات الأوربية الذين ازداد عددهم عاما بعد عام طبقة جديدة، مغربية وأجنبية في نفس الوقت؛ فهي مغربية عندما يتعلق الأمر بحقوقها وأرباحها، وأجنبية عندما يتعلق الأمر بواجباتها.

وكانت الحرب مع إسبانيا في 1859-1860 حدثا تجلت فيه حقيقة الأمور (153) فلقد تأزم النزاع في الخريف، وشبّت نيران الحرب في 22 أكتوبر، ونزلت القوات الإسبانية في سبتة يوم 12 دجنبر ثم زحفت في الغد نحو تطوان. وتهيّج الفريقان وحمسا خلال هذه الحرب التي بدا فيها وكأن الحملة التي شنها الاسبان لاسترجاع أراضيهم قد اضطرمت من جديد شمال العدوة، كما اشتد جنوبها حنين

أحفاد الأندلسيين للأوطان وانبعثت فيهم من جديد الضغائن التي ولّدها النفي أو الطرد. وفي إسبانيا حمست جميع النواحي وطبقات السكان قاطبة، وعاش البلد أجواء حرب صليبية سلبت الألباب وغشّت البصائر[154].

وفي تطوان «بلغت النخوة الوطنية مداها»، وكل الشواهد تثبت ذلك. «فبمجرد إعلان الحرب حمس التطوانيون حماسة يعز نظيرها. فلقد دوّت رشقات المدفعية، وأقيمت مهرجانات الفروسية كما أقيمت الصلوات في المساجد، وكان الأولياء يتحدثون عن الجهاد، والتطوانيون يدّعون أنهم سيفنون العدو في أول اصطدام». غير أن هذا الإجماع لم يتم دون بعض التحفظات التي أظهرت تصدعات المجتمع التطواني. فإلى جانب أولئك الذين كانوا يحلمون بالثأر وبأسطورة الجهاد، كان هناك الحذرون الذين خالفوهم الرأي، أولئك الذين سارعوا سراعا إلى جعل أموالهم وأنفسهم في مكان آمن. وكان اليهود الذين لا دخل لهم في هذا الصراع الأكثر انقساما. وكثير منهم كانوا يرون في الإسبان حماة لهم.

وفي سادس فبراير 1860، استسلمت المدينة لجيش الغزو، ولم يحل هذا الاستسلام إلى تعرضها جزئيا لنهب القبائل المجاورة التي دفعها إلى ذلك حنقها على الهزيمة ومقتها للأثرياء. ولقد أعرب سكان الملاح عن ابتهاجهم بهذا الاحتلال في حين كان المسلمون قانطين؛ واستمر الاحتلال سبعة وعشرين شهرا، حتى ثاني ماي 1862. وكانت التغيرات الظاهرة التي عرفتها الحاضرة كالتصميم الهندسي الجديد وفَتْح فُتَحٍ في جزء من أسوار المدينة وإصلاح الكنيسة والمباني الجديدة، أقل خطورة من التحولات الاجتماعية والاضطربات النفسانية.

وعرف هذا الاحتلال، شأنه شأن كل احتلال ، متعاونين ومقاومين. وتباغض القوم، وأصبح اليهود-موضع كل الشبهات. وكان اليهود دون شك كبش الفداء المعهود في ساعة العُسْرة، بيد أنهم كانوا قد ابتهجوا كل الابتهاج بالوجود الإسباني، أو جنوا أرباحا من صفقات تجارية مختلفة[155]. وكانوا يطالبون جهارا بقانون جديد، وملوحين بالحماية الأوربية، كانوا يبشرون ببزوغ عهد جديد[156].

وهكذا تلاشت أسطورة الانتماء إلى نفس الجماعة. وكانت هذه الأسطورة الماضوية وأسطورة العهد الذهبي في الوقت نفسه، قد حافظت على شعورين مرتبطين أشد الارتباط ومتضادين، وهما الأمل والملاذ في حلم بأندلس مثالية قد تنشأ من جديد أو قد توجد ثانية. وإذا كان الحنين إلى الوطن، وهو حنين قديم العهد ومشتت في تلك الفترة، قد وجد في الاحتلال الاسباني ضالة جديدة بالنسبة لليهود، فإن هذا الحنين والحالة هذه زاد في أسى كثير من المسلمين وعزّز شعورهم بإجحاف تاريخ يعيد نفسه. ولقد «تسرب الخوف من المستقبل إلى الملاح»، كما كتبت ذلك مؤرخة يهودية تطوانية، «وتأسف اليهود على نهاية مدة سبع وعشرين شهرا من حياة كلها دينامية

وانفتاح وتلاق مع إسبانيا»[157]

وكانت القطيعة أقل وقعا بين أهل الحاضرة والقبائل، إلا أنها اشتدت وجدّدت العداوات القديمة. وكادت أفواه القوم تنطق بكلمة الخيانة، وجرت عبارة الاستغلال على الألسن. وأضمر الريفيون الحقد وانتظروا الأخذ بالثأر، وعانت المدينة من جراء ذلك الأمرين خلال هجمات 1903-1904.

وهكذا زال في نهاية هذا القرن (التاسع عشر) ذلك الوئام الذي بالرغم من العداوات وتقلبات الزمان، عرفت تطوان كيف تخلقه وترعاه خلال أربعة قرون من الرخاء والشدة.

روح الأمكنة

تطوان مدينة أندلسية مغربية. وهوية هذه الحاضرة وأصالتها وروح أماكنها ناتجة عن اجتماع النعتين السالفين. وتعتبر نهاية حياتها التقليدية في الحرب التي نُعتت باسمها، نهاية تنطوي على أكثر من رمز. ولقد كتب أحد أحسن العارفين بأحوال المدينة منذ حوالي مائة عام، وهو جولي (Joly) ما نصه: «لعبت الحرب دورا رئيسيا في مصير تطوان، لأن هذه المدينة نهضت بمعظم عبء الحرب. فهي كانت بالفعل الهدف ثم المعتصم ومحور العمليات العسكرية. وفي ظل أسوارها عُقدت معاهدات الصلح. ولم تزل ذكرى انتصار الإسبان ومحاولاتهم الاستقرار في هذا الجزء من المغرب مرتبطة منذ ذلك العهد بصدى اسمها، وهي ذكرى لم تزل حية في قلوب أهلها».

وما تطوان في الحقيقة إلا تاريخ منقوش على الأسوار، ومجتمع ما زال قائما، وعادات حية على الدوام؛ وهي أيضا أسطورة ومجموعة من الصور، وتمثلات جماعية وفردية. ولقد ترسخت آثار التاريخ هذه وصوره الباقية في مميزات ثابتة، وهي مميزات سياسية واقتصادية واجتماعية وأخيرا ثقافية. فسياسيا، تميزت المدينة منذ إعادة تأسيسها وعبر القرون بإيمان راسخ لا ترتد عنه، ودفاعها عن الإسلام الذي تجسد في الجهاد. وأبطالها التاريخيون هم المجاهدون، أولئك المقاتلون في سبيل الله. ولم تنطفئ شعلة الجهاد بسبب جوار سبتة والحصار الذي ضرب عليها مرارا انطلاقا من تطوان التي كانت قاعدة خلفية للقتال، وكذا بسبب الجهاد البحري، ذلك النشاط الذي تجاهلته الحاضرة. ولقد لاحظ أحد العارفين بأحوال المدينة دور الجهاد في تماسك كل الفئات التطوانية: «أبناء الأندلسيين أو الريفيين، وهم ذرية أولئك الذين شيدوا في الماضي صرح الحضارة الإسبانية الموريسكية الزاهية تحت سماء الأندلس الجميلة، أو نسل

أولئك الذين كانوا يرعون الماعز في بلاد الريف الوعرة، إنهم قاتلوا الإسبان أبا عن جد، قليلا أو كثيرا، هؤلاء الإسبان الذين كانوا طليعة العالم المسيحي في هذه الأصقاع، كما كان هؤلاء المقاتلون طليعة الإسلام فيها».

ومرتبطا بهذا الأساس البشري الدائم، يظهر دور الأسر الحاكمة المحلية التعاقبي، هاته الأسر التي فرضت سلطانها أبا عن جد، عموما خلال ثلاثة أو أربعة أجيال، وهي عائلات المنظري في القرن السادس عشر، والنقسيس في السابع عشر، والريفي في الثامن عشر، وأشعاش في الثامن عشر والتاسع عشر. وكان أرباب هذه العائلات سادة الوغى والإدارة، وكانت جذور حكمهم تمتد في المدينة، لكن المصير الذي صاروا إليه والأهمية التي اكتسوها تعدت حدود المدينة لتشمل غالبا شمال غرب المغرب، من العرائش إلى طنجة والقصر الكبير. ولقد تعاملوا مع أوربا، وساهموا أحيانا في مناصرة أو عزل السلاطين الذين كانوا يحسبون لهم - مضطرين - أعظم حساب حتى وقوع الفتنة الكبرى الأخيرة في 1820 - 1822.

ولم يكن استقلال المدينة الذاتي تجاه السلطة المركزية يعني الاستقلال التام ولا رفض البيعة. وكان الحكم المركزي دائما موضع ريبة بالنسبة للحاضرة التي كان استقلالها الذاتي يعكس عزم أوليغارشية العائلات الأندلسية الشديد على أن تظل سيدة اللعبة السياسية، هذه الأوليغارشية التي لولا إجماعها لما تمكن الباشا من تولي الحكم ولا من البقاء فيه. ولقد عرفت المدينة عبر القرون كيف تدمج القادمين الجدد لكونها قدمت لهم نموذجا حضاريا كاملا. واندمجت تلك الحركة المزدوجة، حركة المساهمات المتوالية واستيعابها في حاضرة تعتبر إلى حد ما شبيهة أو مثيلة الأندلس.

وفي إحدى فترات تاريخها كانت تطوان المدينة الوحيدة في المغرب التي تذكرنا بالحواضر المتوسطية، ببورجوازييها المسلمين، ويهودها، وأوربييها وأرمينييها، وكنيستها وبيعها وجوامعها. كما ربطت علاقات في جميع حوض المتوسط بفضل أصول الأندلسيين، الموريسكيين والسفرديين، الإيبيرية، والروابط التي كانت تجمع بينهم وبين بني عمهم المتناثرين في هذه الأرجاء.

وكانت تطوان مدينة مغلقة ومنغلقة على نفسها، ولكنها كانت أيضا منفتحة على كل التأثيرات الخارجية. وهي مدينة أندلسية في أعماقها بالنظر إلى أساسها البشري الأصلي، ومرتبطة أشد الارتباط بأصولها الإيبيرية. واستقبلت تطوان موريسكيي ويهود قشتالة، والريفيين والجزائريين والتجار الفاسيين. وكان هؤلاء القادمون الجدد يندمجون في مجتمعهم الجديد مع حفاظهم على مميزاتهم الأصلية، في حين تأكد استمرار تأثير العائلات البورجوازية الكبرى اقتصاديا وإداريا وسياسيا.

وكان الازدهار الاقتصادي الذي غالبا ماأنكره المؤرخون المغاربة أنفسهم لما لاحظوا ركود القرن التاسع عشر، من أقوى عوامل التماسك الاجتماعي. وزهت

الصناعة التقليدية، وكانت المدينة محور التجارة الجهوية التي كانت تشع منها كما يدل على ذلك ملتقى الممرات التجارية فيها. ولقد نسي حتى سكان تطوان أنفسهم اليوم، دور مدينتهم خاصة كميناء هام كان في إحدى فترات تاريخها أول ميناء في المغرب ضربت سفنه في آفاق البحر، وامتدت علاقاته التجارية إلى أعماق إفريقيا. وفي ميدان الجهاد البحري، تمكن هذا الميناء في أحد عهوده من منافسة سلا أو الجزائر. وكان اسمه معروفا من أمستردام إلى اسميرنه ومن لندن إلى تومبوكتو.

ولم تمح المدينة الحديثة الحالية الآثار القديمة لتاريخها، وهي المدينة التي تضاعف عدد سكانها عشر مرات، والتي أنشئت إلى جانب الحاضرة القديمة ولم تُبدِّل أو تمتزج بها. وداخل أسوارها حافظت المدينة على الطابع المزدوج لأصلها الأندلسي وقرنها الذهبي (1680-1780) المطبوع بالتأثيرات العثمانية. وعلاوة على هذه الشواهد المادية التي حافظت، ونحن نستقبل القرن الواحد والعشرين، على إطار حاضرة أندلسية ترجع إلى عصر النهضة، استمرت الثقافة والفولكلور والأساطير التي تشكل أصالة طبع التطواني.

وتطرح هوية التطواني بالنسبة لعقليته وبالنسبة لعقلية الآخر إشكالا دائما يتعلق بوعيه التاريخي. والتطواني معتز بتاريخه وبخصوصيته، وكان وما يزال غير مفهوم من طرف "الآخر . وترجع أصول عدم الفهم هذا إلى فترة إعادة التأسيس. ويجمع التطواني بين الفردانية والروح الوطنية، وهو يشعر بأنه غير مفهوم وغير محبوب ومُعَنَّفٌ بل ومهدد ومُستهدفٌ دائما. وهو يريد أن يكفي نفسه بنفسه وألاّ يعوّل إلا على نفسه، وهو ما يفسر ميله إلى التقشف والاستقلال الذاتي سياسيا. ولقد عزّز هذه الفردانية الاندماج الاجتماعي وتماسك الحضريين الكبير.

ولقد وصف المؤرخ محمد داود، وهو تطواني من أصل أندلسي، طبيعة المدينة وروحها، وإن سكت عن الاضطرابات والتطرف والشّقاق، ورسم صورة مبتذلة للتطواني وهو يعيش في مدينة فاضلة «نعم إن تطوان لم تكن غنية، ولم تفكر قط في أن تزاحم كبريات مدن المغرب في الثروة والكبر والضخامة والكثرة، ولكنها عرفت دائما كيف تعيش عزيزة الجانب، موفورة الكرامة حسنة السمعة بالرغم من ضعف اقتصادياتها، وفقر القبائل المحيطة بها، فكان القليل فيها مقنعا كافيا، والضعيف لطيفا ظريفا والصغير نقيا نظيفا، والغني مقتصدا مدبرا، والحياة وديعة يسيرة، والأعمال متقنة منظمة، لذلك كله كان سكانها آمنين مطمئنين، راضين مرضيين، وتلك هي السعادة لدى العقلاء الموفقين، والحمد لله رب العالمين»[158]

ولقد أردنا الاستشهاد بهذه السطور التي تلخص تعريف الروح التطوانية، وهو تعريف تطواني واع بأصله ومفتخر به. وفي الحقيقة، فإن هذا النص المكتوب سنة 1959، يظهر ثبات صورة لها هنا قيمة عنصر تاريخي. هكذا يريد التطواني الميسور

والمثقف نفسه، وهكذا رآها ورأى مدينته في منتصف القرن الماضي. إنه تحول أسطورة الأندلس وإنشاؤها ثانية في أرض المغرب. ومن نظرات مختلفة المصدر قد تتولّد صور أخرى أكثر رومانطيقية أو أكثر واقعية. إلا أن محمد داود أجاد إبراز جوهر شخصية التطواني القائم على الشعور بحديته وباعتزازه بالقيم الانسانية والسامية التي كانت تغمره. ألم يكن هذا الشعور هو نفس الشعور الذي كان يحس به أسلافه الأندلسيون عندما نزلوا في الأرض المغربية حيث أعادوا تأسيس ديارهم في حاضرة جديدة؟

ولقد أغنوا هذه الحاضرة بكل مازودتهم به التربة المغربية، وأغنوها كذلك بكل التأثيرات التي وصلتهم عرضا من أوربا وكذا عن طريق ماجريات التجارة مع هذه القارة القريبة التي كانت غريبة عنهم ودائمة الحضور في نفوسهم في ذات الوقت، كما أغنوها بما وصلهم من بلاد المشرق البعيدة عنهم والمتصلة بهم بواسطة الدين أوثق الاتصال.

الهوامش

* 1- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد I ، تطوان، 1959، ص 64 - 76

* 2- عن مدينة تمودة وموقعها، راجع بحثنا "تمودة"، منشورات كلية الآداب بتطوان، العدد 1، الدار البيضاء 1991

* 3- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان،المجلد I، ص 46، والصورة رقم 8 والتعليق عليها ما بين ص 32 - 33.

* 4- عن هذا التهديم، يقول أحمد الناصري في الجزء الرابع من الإستقصا، ص 89 - 90 «(...) وفي هذه المدة خربت تطاوين القديمة أيضا فزعم منويل في تاريخه: أن قراصين المسلمين من أهل تطاوين وغيرهم كانت تغير على سواحل إصبانيا وتغنم مراكبها ولما كانت سنة ألف وأربعمائة مسيحية الموافقة لسنة ثلاث وثمانمائة هجرية بعث الطاغية الريكي الثالث شكوادرة لغزو تطاوين ومراكبها فانتهت إلى وادي مرتيل وأفسدت قراصين المسلمين التي به ثم نزلت عساكر الإصبنيول للبر فاقتحمت مدينة تطاوين بعد أن جلا أهلها عنها وخربتها وعاثت فيها وبقيت خربة نحو تسعين سنة ثم جدد بناؤها على يد الرئيس أبي الحسن علي المنظري الغرناطي كما سيأتي. (...)»؛ وانظر: الحسن بن محمد الوزان الفاسي (ليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، الجزء الأول، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، الطبعة الثانية، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983 ، ص 318 ؛ و مارمول كربخال، إفريقيا، الجزء الثاني، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد زنيبر ومحد الأخضر وأحمد التوفيق وأحمد بنجلون، الرباط، دار نشر المعرفة، 1988 - 1989، ص 222؛ ومحمد داود، تاريخ تطوان، المجلد I، ص 79 - 83.

* 5- انظر: أحمد الناصري، الإستقصا، الجزء IV، ص 92 - 93.

* 6- المصدر نفسه، ص 96 و 110.

* 7- المصدر نفسه، ص 98.

* 8- المصدر نفسه، ص 116

9- درس جولي (Joly) ظواهر المدينة الجغرافية بدقة في *Archives marocaines*، 1905.

* 10- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد I، ص 85 - 90.

11- أحسن دراسة أنجزت عن سيدي المنظري، هي تلك التي قام بها
Guillermo Gozalbes Busto, *Al-Mandari, El Granadino, Fundador de Tetuán*, Segunda edición, Maracena, T. G. Arte, Juberías & CIA, S. L., 1993;

غير أن كثيرا من الأسئلة لازالت بدون جواب فيما يتعلق بترجمة المنظري.

*** = المترجم.**

* 12- انظر: أحمد الناصري، الإستقصا، الجزء IV، ص 124 - 125؛ والحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، الجزء I، ص 318 - 319؛ ومارمول كربخال، إفريقيا، الجزء II، ص 222 - 224

13- عن زواج المنظري المتعدد، انظر: G.Gozalbes Busto؛ المرجع المذكور، ص 65 - 72. وبالرغم من اقتناع المؤلف الإسباني بصحة فرضياته، فإن هذه الحكايات تبدو لنا خيالية.

14- قراءة هذا النوع من الحكايات ممتعة، لكنها تدفعنا إلى الشك فيما يتعلق بالقيمة الوثائقية لبعض المصادر البرتغالية.

* 15- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد I، ص 90؛ 107 - 110.

* 16- انظر: أحمد المقري، نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، المجلد IV، بيروت 1988، ص 528؛ وأحمد الناصري، الإستقصا، الجزء IV، ص 102 - 107؛ والجزء VI، ص 11 - 12

17- توجد فيما يخص مسألة الموريسكيين بصفة عامة، مجموعة هامة من الأبحاث المتباينة القيمة، نذكر من بينها صدور أعمال المؤتمر الدولي بمناسبة الذكرى 380 لطرد الموريسكيين، وعنوانه بالكاطالانية:

L'expulsio dels Moriscos. Consequencies en el mon islamia i en el mon cristia, Barcelona, 1994.

ويعتبر كتاب محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 - 17، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، 1989 ، أحسن مجمل تاريخي عن الهجرة الأندلسية إلى الرباط وتطوان.

* 18- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد Iضضضضض ص 104.

* 19- المصدر نفسه، ص 91 - 93.

* 20- وليس ابنه كما ورد في النص الأصلي، انظر محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد I، ص 113 - 116؛ ومارمول كربخال، إفريقيا، الجزء II، ص 222؛ و الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، الجزء I، ص 319.

* 21- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد I، ص 117 - 123.

* 22- راجع: محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، الجزء I، الرباط، 1977، ص 145 - 146.

* 23- انظر: سيدي العربي الفاسي، مرآة المحاسن، طبعة فاس، 1324 هـ، ص 168 «إنها بلد مربع وقصبتها في ركنها ولها ثلاث أبواب وسورها في عرضه سبعة أدرع و دار بالسور الأول سور ثان وبعده دارت الحفائر، وأعظمها حفير القصبة. ويعلو البلد من جهة الجوف جبل بنى عليه المنظري قصبة

*** = المترجم.**

أكملها في عشرين سنة»؛ ومحمد داود، تاريخ تطوان، المجلد I، ص 91.

* 24- المصدر نفسه، ص 93 و 103.
* 25- المصدر نفسه، ص 91 - 93.
* 26- المصدر نفسه، ص 91.
* 27- المصدر نفسه، ص 92.
* 28- المصدر نفسه، ص 91 - 94.
* 29- المصدر نفسه، ص 88.
* 30- المصدر نفسه، ص 229.
* 31- المصدر نفسه، ص 235 - 236 ؛ 242 - 244؛ ومحمد بن عبد السلام الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)، تحقيق أحمد العماري، الرباط، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، 1986، ص 59 - 60؛ ومحمد بن أحمد أكنسوس، الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، تقديم وتحقيق أحمد بن يوسف الكنسوسي، الجزء I، مراكش، المطبعة والوراقة الوطنية، 1994، ص 120؛ ومحمد القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، الجزء II، الدارالبيضاء،1982، ص 202.
* 32- ينتسب آل النقسيس حسب المصادر المغربية إلى بني يدر، وهي قبيلة مجاورة لتطوان، حيث لازال مدشر النقسة موجودا إلى اليوم. وتعتبرهم بعض المصادر الأوربية أندلسيين. والروايتان غير متناقضتين حتما؛ وراجع: محمد حجي، علاقة تطوان بالمخزن خلال القرن الحادي عشر (17 م)، (1012 - 1084 هـ؛ 1603 - 1673 م)، أعمال ندوة تطوان خلال القرنيين 16 و 17 ؛ 9، 10، 11 مارس 1995، تطوان، مطبعة الهداية، 1996، ص 15 - 25.
* 33- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد I، ص 175 - 176.
* 34- المصدر نفسه، ص 176 - 180؛ 184 - 202. وقع خلط في النص الأصلي فيما يخص خلفاء المقدم أحمد بن عيسى النقسيس.
* 35- انظر: محمد الضعيف، المصدر المذكور، ص 47؛ 59؛ ومحمد أكنسوس، المصدر المذكور، ص 114 123؛ وأحمد الناصري، الإستقصا، الجزء VII، ص 36؛ 69؛ ومحمد القادري، نشر المثاني، الجزء II، ص 169 و 339؛ ومحمد داود، تاريخ تطوان، المجلد I، ص 238 - 241؛ 273 - 275.

36- درس كل من غييرمو غوثالبيس بوسطو (Guillermo Gozalbes Busto) وعبدالعزيز السعود جوانب مختلفة من التجارة التطوانية مع أوربا وداخل بلاد المغرب. راجع عبد العزيز السعود، تطوان في أواخر القرن التاسع عشر، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على ضوء التسرب الأوربي، رسالة ديبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 1992، ص 63 - 92 . ولقد درس غوثالبيس بوسطو مواضيع خاصة، كسوق العبيد في تطوان

*** = المترجم.**

خلال القرن XVI، انظر المرجع المذكور، ص 87 - 97.

37- عن هذا النشاط في القرن السابع عشر، راجع:

J - L. Miège, "Consuls et négociants à Tétouan 1681 - 1727", *in Tétouan au XVII siécle*, Tétouan, 1995.

* 38- انظر: محمد داود، مختصر تاريخ تطوان، الطبعة الثانية، الجزء I، تطوان، المطبعة المهدية، 1955، ص 54 - 56.

* 39- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد I، ص 245 - 252.

* 40- راجع: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد VIII، الرباط 1978، ص 156؛ 281 - 282؛ 367 - 368؛ 403.

41-درست كاطرين الدليرو هذه الظاهرة في إطارها التطواني، راجع:

Catherine Del - Lero, *La comunidad hispano - morisca de Tetuán*, Institut d'Etudes Ibériques et Ibéro-américaines, Université de Bordeaux III, Thèse, 1983, pp 97 110.

وتشكل هذه الدراسة مجملا تاريخيا جيدا عن الجماعة الأندلسية في تطوان، وخاصة في الميدان الاجتماعي

والثقافي.

* 42- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد I، ص 102 - 103.

* 43-نفسه.

* 44- عن جامع المصيمدي بحومة الطرنكات، وعن الشيخ أبي الحسن علي المصيمدي، راجع: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد I، ص 298؛ 330.

45- أودعت في متحف تطوان الأثري الذي أنشئ سنة 1938 ، البقايا التي عثر عليها منذ الحفريات الأولى التي شرع في القيام بها ابتداء من 1921 في تمودة، وسنة 1923 في ليكسوس. ولقد دشن رسميا في 19 يوليوز 1940. ويشتمل المتحف المذكور على عدة قطع أثرية في غاية الأهمية، راجع:

Pelayo Quintero Atauri, *Estudios varios sobre los principales objetos que se conservan en el Museo*, Tetuán, 1942, 87 p.

* 46- انظر: محمد الضعيف، المصدر المذكور، ص 68؛ ومحمد أكنسوس، المصدر المذكور، ص 133.

* 47- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد I، ص 97 - 98.

* 48- انظر: أحمد الناصري، الإستقصا، الجزء IV، ص 124- 125.

*** = المترجم.**

* 49– انظر: أحمد الناصري، الإستقصا، الجزء VII، ص 64.

* 50– انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد III، ص 117.

* 51– انظر: أحمد الناصري، الإستقصا، الجزء VII، ص 64.

* 52– انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد I، ص 258 – 261؛ المجلد II، ص 23 – 25 ؛ 28 – 40؛ 44 – 45؛ المجلد III، ص 14؛ ومحمد الضعيف، المصدر المذكور، ص 64؛ ومحمد أكنسوس، المصدر المذكور، ص 126، 131؛ وعبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف، تقديم وتحقيق د. عبد الهادي التازي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، مطبعة إديال، 1993.

* 53– انظر: أحمد الناصري، الإستقصا، الجزء VII، ص 67.

* 54– انظر: محمد داود، مختصر تاريخ تطوان، الجزء I، ص 60 – 61 ؛ 66.

* 55– انظر: أحمد الناصري، الإستقصا، الجزء VII، ص 77 – 78؛ 98 – 99.

* 56—*Les Sources inédites de l'Histoire du Maroc; 2ème série ;Dynastie Filalienne;* Tome VI, Paris, 1960,p.466467.

* 57– انظر: محمد الضعيف، المصدر المذكور، ص 96؛ ومحمد أكنسوس، المصدر المذكور، ص 135؛ ومحمد القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، الجزء III، الدارالبيضاء، 1986، ص 216.

* 58– انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد II، ص 45 – 62؛ 80 – 86؛ 94 – 99؛ 178 – 188؛ والمجلد III، ص 42؛ وأحمد الناصري، الإستقصا، الجزء VII، ص 78؛ 115، ومحمد الضعيف، المصدر المذكور، ص 143 – 145.

* 59– انظر: أحمد الناصري، الإستقصا، الجزء VII، ص 165 – 166؛ وأحمد الرهوني، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، مخطوط المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، الجزء الأول، ص 117.

* 60– انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد II، ص 99 – 105؛ ومختصر تاريخ تطوان، الجزءI، ص 68 – 69.

* 61– انظر: أحمد الناصري، الإستقصا، الجزء VII، ص 115 – 117؛ وعبد الرحمن ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، الجزء I، الطبعة 2، الدار البيضاء، 1990، ص 271 – 273؛ ومحمد داود، تاريخ تطوان، المجلد II، ص 167 – 178؛ 205 – 206.

* 62– المصدر نفسه، ص 134 – 154؛ ومختصر تاريخ تطوان، الجزءI، ص 79 – 84.

* 63– انظر: عبد الرحمن ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، الجزء ٧، ص 489 – 494.

* 64– انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد III، ص 18 – 35؛ ومختصر تاريخ تطوان، الجزءI

*** = المترجم.**

، ص 84 – 85.

* 65– انظر محمد الضعيف، المصدر المذكور، ص 105 – 106؛ 113؛ 131؛ ومحمد أكنسوس، المصدر المذكور، ص 158 – 159؛ 179 – 181.

* 66– انظر: أحمد الناصري، الإستقصا، الجزء VII، ص 150؛ وعبد الرحمن ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، الجزء III، ص 146؛ ومحمد الضعيف، المصدر المذكور، ص 124؛ 126؛ 141.

* 67– انظر: أحمد الناصري، الإستقصا، الجزء VII، ص 163 – 165؛ ومحمد أكنسوس، المصدر المذكور، ص 183؛ 185 – 190؛ ومحمد القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، الجزء IV، الدارالبيضاء،1986، ص 43 – 45؛ وعبد الرحمن ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، الجزءIV، ص 340 – 342؛ 425 – 428؛ 430 – 433؛ ومحمد داود، تاريخ تطوان، المجلد II، ص 209 – 231.

* 68– انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد II، ص 231 – 236؛ والمجلد III، ص 58؛ ومختصر تاريخ تطوان، الجزء I، ص 89 – 90؛ ومحمد الضعيف، المصدر المذكور، ص 156؛ ومحمد أكنسوس، المصدر المذكور، ص 199 – 200.

* 69– انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد II، ص 235 – 239؛ 253 – 256؛ والمجلد III، ص 61 – 65؛ 93 – 94؛ ومختصر تاريخ تطوان، الجزء I، ص 93؛ ومحمد الضعيف، المصدر المذكور، ص 160 – 161؛ ومحمد أكنسوس، المصدر المذكور، ص 216؛ ومحمد القادري، نشر المثاني، الجزء IV، ص 119؛ وعبد الرحمن ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، الجزء IV، ص 348.

* 70– حسب بريت ويت، بلغ عدد سكان تطوان سنة 1727 نحو 30000 نسمة، انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد II، ص 164.

* 71– انظر: محمد القادري، نشر المثاني، الجزء III، ص 404 – 405؛ 408؛ والجزء IV، ص 17؛ وأحمد الناصري، الإستقصا، الجزء VII، ص 146؛ وعبد الرحمن ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، الجزء IV، ص 416.

* 72– انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد II، ص 123.

73– انظر: أحمد الرهوني، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، مخطوط المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، الجزء الأول، ص 110 – 112؛ والجزء الثالث، ص 81.

74– حسب المحفوظات الهولندية، لم يعد للبلاد الواطئة قنصلا في المغرب بعد رحيل هيبيندورب (J. P. Heppendorp) سنة 1696. ولقد شغل هذا المنصب في الرباط التجار الهوغونوتيون (Huguenots) أو اليهود (Samuel Roy و Gedeon Mendez من بعده)؛ كما كان الشأن في تطوان في 1725، حسب رسالة لها تفيلد (Hatfield) مؤرخة بتطوان في 29 يونيو 1725. ولم نعثر باستثناء هذه الرسالة على شهادة أخرى في هذا الموضوع.

74* مكرر - انظر : J.POTOCKI , Voyages en Turquie et en Egypte, en

*= **المترجم.**

Hollande, au Maroc, Paris, 1980, p 154-177

* 75- راجع: محمد المنوني، دودة الحرير وصناعات أخرى بتطوان القرن التاسع عشر، أعمال ندوة تطوان قبل الحماية (1860 - 1912)؛ 12، 13، 14 نوفمبر 1992، تطوان ، مطبعة الهداية، 1994، ص 21 - 24.

76- راجع: جون لوي مييج، أنشطة تطوان البحرية والتجارية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر؛ ترجمة مصطفى غطيس، مجلة كلية الآداب بتطوان، العدد 7، 1994، ص 61 - 108.

77- ذكر المؤرخ محمد داود حوالي عشرة قضاة من القرن السابع عشر، وحوالي أربعين عدلا. وأورد صاحب "تاريخ تطوان" حوالي عشرين رسما عدليا ترجع إلى نهاية القرن المذكور. ونجد من بين هؤلاء القضاة بعض الفاسيين؛ ومن بين العدول، نجد عددا هاما من الجبليين والريفيين.

* 78- راجع: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد VII، الرباط، 1990، ص 217 - 329.

* 79- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد VIII، ص 274 - 275.

* 80- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد III، ص 236 - 237.

81- عن كل هذه العلاقات مع لڤرنة وجنوة والبندقية، راجع:

J - J. Miège, "Les échanges maritimes entre l'Italie et le Maroc du XVIII au XIX siécle", *in Actes du congrès de Naples*, 4, 1995.

82- المحفوظات الديبلوماسية بنانط؛ قادس، رسالة بارطيي (Partyet).

* 83- عن هذه العلاقات، راجع: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد VIII، ص 20؛ 39 - 41؛ 43؛ 48؛ 60؛ 63؛233؛ 303 - 304.

84- عن العلاقات بين جبل طارق والمغرب، راجع:

A. Serfaty, *The Jews of Gibraltar,* Gibraltar, 1933;

وتكمل هذه الدراسة: محفوظات الغرفة التجارية بمرسيليا (CCM J 1640)، مذكرة دجنبر 1767.

85- *Dokumenti o Odnosima Dubrovniku a Maroka*, Sarajevo, 1960.

86- محفوظات الغرفة التجارية بمرسيليا، ج J 1388 إلى 1390، و ج J 1369 الجزائر 13/ 1779/12.

* 87- انظر: عبد الرحمن ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، الجزء III، ص 259؛ وأحمد الناصري، الإستقصا، الجزء VIII، ص 25؛ 31 - 32؛ ومحمد داود، تاريخ تطوان، المجلد II، ص 267 - 269.

88- عن هذا النشاط النقدي، راجع:

*** = المترجم.**

D. Eustache, *Corpus des monnaies alaouites*, Rabat, 1984, 3 vol., vol. I, p. 165 sq. et vol 2, p. 841 sq.

حيث ذكرت حوالي عشرين قطعة ذهبية من 1765 إلى 1788، وثلاث فضية فيما بين 1188 هـ 1774 م و 1193 هـ (1780م)

F. von Dombay, *Geschichte der Scherifien*, Agram, 1801; -89

ويعرف هذا الباحث المثقال أو الطالر (Thaler) كـ: «قطعة نقدية فضية مستديرة تقريبا، قطرها أصغر بعض الشيء من القرش الإسباني، لكنها أسمك منه». ويقدم الباحث المذكور نموذجا وقد نقشت عليه آية قرآنية تتطرق لمكتنزي المال.

* 90- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد III، ص 284؛ وأحمد الناصري، الإستقصا، الجزء VIII، ص 11.

J.Braithwaite , The History of the Revolutions in the Empire -91 *of Morocco upon the Death of the late Emperor Mulay Ismael, London, 1729*

* 92- انظر: محمد داود، مختصر تاريخ تطوان، الجزء I، ص 94 - 95.

* 93- نفسه، ص 91 - 92.

94- راجع سرد وقائع بعثة J. Russel لافتداء الأسرى في 1727 و 1728، و وصفه لسفره من تطوان إلى فاس.

95- لقد ترك جولي (A. Joly) الذي كان ينتمي إلى البعثة العلمية الفرنسية في طنجة أحسن الدراسات حول تطوان في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهي دراسات أنجزت بعد عمليات تحقيق طويلة قام بها الباحث الفرنسي في عين المكان. وأبحاث جولي وإن أصبحت متجاوزة في قسمها التاريخي، لا يمكن الإستغناء عنها للتعرف على أحوال المدينة قبيل تحولات القرن العشرين الكبرى. راجع: *Archives marocaines*.

96- كان قصر المقيمية يوجد في المدينة القديمة، في المبنى الذي كان منذ القرن التاسع عشرمقرا لقنصلية إسبانيا، وهو يحد بقصر أحمد الريفي. ويعكس آختيار هذا الموضع الشهرة التي كانت تستمد من جوار قصور المدينة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر.

* 97- انظر: محمد أكنسوس، المصدر المذكور، ص 156.

* 98- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد II، ص 188 - 198؛ ومختصر تاريخ تطوان، الجزء I، ص 86.

* 99- انظر: محمد القادري، نشر المثاني، الجزء II، ص 323.

* 100- انظر: محمد داود، مختصر تاريخ تطوان، الجزء I، ص 86.

* = **المترجم.**

101- يشكل دي ريپـيـردا (De Ripperda) (Groningue 1680 - تطوان 1737)، و هو سياسي وعسكري وديبلوماسي، مثالا لمغامر غير مألوف. وكان دي ريپيردا عديم الذمة ومزده بنفسه ومصابا بهوس العظمة، وآعتنق على التوالي البروتستانتية و الكاثوليكية وأخيرا الإسلام. وهو يمثل نموذجا من أحسن النماذج فيما يخص أولئك المعتنقين للإسلام الذين لعبوا دورا هاما في الحياة المغربية وقتئذ، و هو في الغالب دور غامض أو غير معروف على أتم وجه. راجع علاوة على «مذكراته»، ترجمة حياته التي كتبها

Seyveton, *Une cour et un aventurier du XVIII siécle. Le baron de Ripperda*, Paris, 1896;

* وانظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد III، ص 35 - 41.

* 102- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد II، ص 239.

* 103- المصدر نفسه، ص 242 - 243؛ ومختصر تاريخ تطوان ، الجزء I، ص 91 - 92.

* 104- انظر: محمد الضعيف، المصدر المذكور، ص 187.

* 105- راجع: التهامي الوزاني، مدرسة لوقش كفكرة، ذكرى مرور قرنين على تأسيس مدرسة لوقش، تطوان، وزارة المعارف العمومية، 1952.

* 106- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد II، ص 327.

* 107- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد I، ص 347 - 383.

* 108- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد II، ص 198.

* 109- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد I، ص 322 - 326.

* 110- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد II، ص 198.

* 111- انظر: محمد داود، مختصر تاريخ تطوان، الجزء I، ص 59؛ و تاريخ تطوان، المجلد VIII، ص 200 - 201.

* 112- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد I، ص 307 - 311.

* 113- المصدر نفسه، ص 312 - 313.

* 114- المصدر نفسه، ص 309 - 311؛ 330 -337؛ و محمد القادري، نشر المثاني، الجزء I، ص 260.

* 115- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد I، ص 347 - 383؛ ومحمد القادري، نشر المثاني، الجزء III، ص 195- 197.

* 116- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد I، ص 411 - 415؛ و مختصر تاريخ تطوان، الجزء I، ص 63 - 64؛ ومحمد القادري؛ نشر المثاني، الجزء III، ص 25 - 49؛ وأحمد الناصري، الإستقصا، الجزء VII، ص 84.

* 117- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد I، ص 278؛ 284.

*** = المترجم.**

* 118- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد III، ص 9 - 13؛ و محمد القادري، نشر المثاني، الجزء III، ص 59.

* 119- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد II، ص 295؛ 360 - 361؛ 374.

* 120- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد I، ص 280 - 281؛ 287 - 288؛ 345 - 347.

121- كان القنصل الفرنسي آخر ممثل أوربي استقر في طنجة عام 1795.

122- تم إحصاء دخول أربعين سفينة من المغرب إلى مرسيليا خلال عصر الثورة والإمبراطورية الفرنسيتين (1793 - 1815)، نصفها تقريبا قدم من تطوان، وحوالي عشر سفن منها كانت مغربية. وحسب بعض البيانات الإحصائية غير التامة، فإن حوالي عشر سفن من مجموع هذه السفن كانت من جنوة ولقرنة. ولقد ساهمت العلاقات الجيدة التي كانت تربط بين المغرب وانجلترا في تحسن علاقات تطوان مع جبل طـارق. ففـي 1798 جاء أسطول نلسن إلى شحر تطوان للتزود مباشرة بالمواد الغذائية الطرية (الفريشك) وبالماء.

123- راجع:

Eloy Martín Corrales, "La flotte marocaine et le commerce de cabotage espagnol (1797 1908)", *in Le Maroc et la mer, Revue Maroc -Europe*, vol. 2, 1992, pp. 71-80.

* 124- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد VIII، ص 296 - 298.

* 125- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد III، ص 180 - 181؛ ومختصر تاريخ تطوان، الجزء I، ص 105؛ 110.

* 126- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلدIII ، ص 179 - 181؛ 191، 265، ومحمد الضعيف، المصدر المذكور، ص 201؛ ومحمد أكنسوس، المصدر المذكور، ص 267.

* 127- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد III، ص 179 - 180؛ ومحمد الضعيف، المصدر المذكور، ص 202؛ 204؛ 207؛ وأحمد الناصري، الإستقصا، الجزء VIII، ص 76

* 128- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد III، ص 200 - 201؛ 224.

* 129- راجع وصف عبد الرحمن أشعاش في نص الرحلة المغربية لبوتوكي:

Jean Potocki, *Voyages en Turquie, en Eqypte en Hollande et au Maroc*, Paris, 1980, p, 154 - 214.

* 130- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد III، ص 196؛ ومحمد أكنسوس، المصدر المذكور، ص 286.

* 131- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد III، ص 233؛ 235 - 239.

* 132- المصدر نفسه، ص 239 - 240.

* 133- انظر: محمد الضعيف، المصدر المذكور، ص 391.

***= المترجم.**

* 134- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد III، ص 246 - 249؛ ومحمد الضعيف، المصدر المذكور، ص 394.

* 135- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد III، ص 267؛ وأحمد الناصري، الإستقصا، الجزء VIII، ص 152. ولن يحكم أشعاش المدينة بعد ذلك كما ورد في النص الأصلي.

136- التاريخ الذي يكتب عادة (1821/ 1822) تاريخ خاطئ؛ فالحاج عبد الرحمن أشعاش توفي في تطوان في 22 يوليوز 1824، راجع:

J.-L. Miège, *Chronique de Tanger. Le Journal de Bendelac* 1820 1830, Rabat, 1995;

* وانظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد III، ص 273 - 284، ومختصر تاريخ تطوان، الجزء I ، ص 120.

* 137- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد III، ص 258 - 266؛ ومحمد أكنسوس، المصدر المذكور، ص 319 - 320؛ وأحمد الناصري، الإستقصا، الجزء VIII، ص 152.

* 138- انظر: محمد أكنسوس، المصدر المذكور، ص 321؛ 324؛ وأحمد الناصري، الإستقصا، الجزء VIII، ص 154 - 159

* 139- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد III، ص 269 - 270؛ ومحمد أكنسوس، المصدر المذكور، ص 327.

* 140- يروي الناصري في الجزء الثامن من الإستقصا، ص 159، أحداث استسلام المدينة كالتالي: «ولما افتتح السلطان رحمه الله فاسا وصفا له أمرها، عزم على النهوض إلى تطاوين، (...) ولما نزل السلطان رحمه الله بمشرع مسيعيدة من نهر سبو، وفد عليه أهل تطاوين تائبين ومعهم قائدهم العربي بن يوسف المسلماني، وكان الناس يظنون أنه ينكل به وبمن قام معه في الفتنة، فلم يقل لهم إلا خيرا، حتى لقد قال له ابن يوسف: يامولانا إن أهل تطاوين لم يفعلوا شيئا، وإني أنا الذي فعلت، يريد أن يبرئهم ويفديهم بنفسه، فقال له السلطان رحمه الله: ماعندك ما تفعل أنت ولا هم، وإنما الفاعل هو الله تعالى، وصفح عنهم وأحسن إليهم، (...)».

* 141- انظر: محمد داود، مختصر تاريخ تطوان، الجزء I، ص 111.

142- ترك بوكليرك (Beauclerk) الذي التقى به في يونيو 1826، وصفا جيدا لهذا الشخص وكذا أخيه الذي كان آنذاك باشا مدينة الصويرة؛

* وانظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد III، ص 294.

143- عن سفارة أشعاش، راجع:

S. G. Miller, *Travels of a Maroccan scholar in France in 1845- 1846: The voyage of Mohammed as -Saffar*, Oxford, 1992;

* = المترجم.

* وانظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد III، ص 294 - 309؛ ومختصر تاريخ تطوان، الجزء I ص 121 - 122؛ وعبد الرحمن ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، الجزء V،ص 77، 176 - 179.

* 144- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد III، ص 310 - 312.

145- زيادة على النقود، تشمل قائمة الممتلكات المحجوزة من عائلة أشعاش، الحقول والبساتين وقطعان المواشي (717 رأس)؛ راجع محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد III، ص 313 - 334. ولم تفقد عائلة أشعاش بأسرها حظوتها، فلقد احتفظ عبد القادر أشعاش، علاوة على كنز مخبأ دون شك، بدور، خاصة في الملاح، حيث كان شريكا في ملكها مع اليهود.

* 146- عن المجال المغروس داخل الأسوار، انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد I، ص 104.

* 147- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد II، ص 303 - 304.

* 148- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد III، ص 237 - 239؛ ومختصر تاريخ تطوان، الجزء I، ص 114.

* 149- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد III، ص 237؛ ومختصر تاريخ تطوان، الجزء I، ص 112 - 113.

* 150 - وليس كما ورد في النص الأصلي "التي بناها ابن الصالح سيدي عبد السلام بن ريسون" انظر محمد داود ، تاريخ تطوان ، المجلد III ، ص 203.

* 151- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد II، ص 324.

* 152- عن المهاجرين الجزائريين إلى تطوان، انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد VIII، ص 198-207؛ 314 - 315.

* 153- عن حرب تطوان، راجع: أحمد الناصري، الإستقصا، الجزء IX، ص 84 - 102؛ وعبد الرحمن ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، الجزء III، ص 399 - 474؛ 487 - 522؛ ومحمد داود، تاريخ تطوان، المجلد IV، تطوان، 1964؛ والمجلد V، تطوان، 1965؛ ومختصر تاريخ تطوان، الجزء I، ص 125 - 139

154- عن الحماس في اسبانيا راجع:

M. C Lecuyer et C. Serrano, *La Guerre d'Afrique et ses représentations en Espagne* (1859 - 1904), Paris, 1976.

155- عن الأعمال المعادية لليهود، راجع:

N. A. Stillman, "Two accounts of the persecution of the Jews of Tetuan in 1790", *in The Diaspora Research Institut,* vol. V, 1978, pp. 130 - 142,

حسب F. von Dombay

* = المترجم.

156- انظر كيف لخصت S. Leibovici وضعية يهود تطوان في كتابها المتحيز:
Chronique des juifs de Tétouan (1860 - 1896), Paris, 1984;

حيث ورد في ص 39 مثلا: «وهكذا انقضى بالنسبة ليهود تطوان عهد حريتهم المبارك. وكان عليهم أن يعيشوا ثانية في وضعيتهم المزرية السابقة، ويواجهوا علاوة على ذلك، قسوة السلطات المغربية التي قد تتهمهم دون شك بالتعاون مع العدو، قليلا أو كثيرا. يالها من سخرية! إنهم استنشقوا هواء الحرية بفضل إسبانيا، واكتشفوا سعادة حياة طبيعية لا إكراه فيها ولا إذلال، وعاشوا أحيانا في رخاء لم يتصوروا أنهم قد يعيشون فيه أبدا

* 157- انظر: محمد داود، مختصر تاريخ تطوان، الجزء I، ص 167.

* 158- انظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد I، ص 431.

* = المترجم.

مآخذ الكتاب

تواجه مؤرخ تطوان إشكالية الوثائق. فمصادر تاريخ المدينة مشتتة ومتفاوتة الأهمية وتتخللها ثغر. وبالنسبة لهذا المؤلف، استغلت - علاوة على الكتب والمقالات الآتي ذكرها - ثلاث مجموعات وثائقية:

1- في أروبا تم الإطلاع على الخزانات الكبرى للمحفوظات الخاصة بالعلاقات مع المغرب: وزارة الشؤون الخارجية في باريز ولندن ومدريد. ومحفوظات الدولة أو المحفوظات الوطنية في فرنسا والبلاد الواطئة والبرتغال وإسبانيا. وحظيت باهتمام خاص مصادر لم تستغل بعد، وخاصة في محفوظات المرافئ (سجلات الصحة في مرسيليا ولقرنة ومالطة، إلخ).

وتملك مكتبة ومحفوظات القصر الملكي في مدريد مجموعة غنية من الصور (رسوم وصور شمسية) تتعلق بتطوان، ونفس الشيء بالنسبة للمكتبة الوطنية (ذخيرة T.G. Figueras).

ولقد نشر J.. B.Villar Ramirez حوالي عشرين تصميما للمدينة، معظمها لم يكن قد نشر من قبل ، وهي محفوظة في المحفوظات الإسبانية، وذلك في مؤلفه:

Mapas, planos y fortificaciones hispanicos de Marruecos (XVI XX) , Madrid, 1992.

ولنشر هنا، وإن كانت توجد في طنجة، إلى المجموعة الهامة من الصور المحفوظة في متحف مفوضية الولايات المتحدة القديمة (الرسوم المائية لـ Gore Ouseley، 1827؛ ولوحات Bellaire، 1841، إلخ).

2- وتبقى المعلومات المستقاة من المصادر المغربية محدودة. والقلة المتبقية من هذه المصادر غير كافية لإعادة كتابة ترجمة مؤسس المدينة. وحتى تاريخ إعادة التأسيس لازال غير محدد بالضبط. وتفسر هذه الثغر ندرة الدراسات الحديثة الخاصة بتطوان. وتتميز المحفوظات العمومية المركزية (ذخيرة المكتبة الحسنية بالرباط) بالفقر فيما يخص الفترة الواقعة قبل القرن الثامن عشر. وفي تطوان، إذا كانت ذخائر المكتبة العامة غنية بعض الشيء، فإن محتويات المكتبات الأخرى غير معروفة على أتم وجه، واستغلالها غير متيسر ، ونذكر من بينها ذخائر الأحباس في تطوان، و وثائق جامع

العيون، إلخ.

ولقد أخرجت بعض المحفوظات الخاصة وثائق تتعلق بعائلة النقسيس في القرن السابع عشر، وفقرات من سجلات الأمناء، ورسائل عائلة الرزيني، إلخ. وستكون هذه الذخائر في المستقبل دون شك، الذخائر التي سيكون استغلالها الأكثر إثمارا.

ومن بين هذه الوثائق يجب أن نخص بالذكر مخطوط المؤرخ أحمد بن محمد الرهوني: عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، المحفوظ في المكتبة العامة بتطوان. ولقد قام عزوز حكيم بترجمته إلى الإسبانية ترجمة جزئية:

Historia de Tetuán, Tetuán, 1953.

واستفاد محمد داود كثيرا من هذا المخطوط الواقع في عشرة أجزاء. ولا زال هذا المخطوط يعتبر من أهم مصادر تاريخ المدينة نظرا لكونه ألف اعتمادا على وثائق لم يصلنا بعضها، وكذا على جمع الأخبار الشفاهية.

ويمكننا أن نأسف، نظرا للنقص في الإمكانيات، على كون الأبحاث الأثرية في المدينة، وإن شملت حتى فترة التأسيس، ظلت محدودة. وهناك مجموعة من البقايا الأثرية التي جمعت من بعض المباني القديمة محفوظة في متحف الفن والإثنوغرافيا الغني والواقع في باب العقلة.

ولقد تمت مجموعة من الأبحاث الميدانية قامت بها خاصة السيدة نادية الرزيني لتحضير أطروحتها:

The Domestic Architecture of Tetuan, 17th to 20th centuries, Oxford, 1989.

المجموعات الوثائقية

DE CASTRIES et al, *Les Sources inédites de l'histoire du Maroc*, 2e série. Dynastie Filalienne France vol. 1; vol. 2, 3/6/1682 à 30/8/1686; vol. 3, 2/9/1686 à 12/4/1693; vol. 4, 1693 à 1698; vol. 5, 1698 à 1699; vol. 6, 1700 à 1718; continué par C. de La Véronne.

داود (محمد) ، تاريخ تطوان، (8 مجلدات)، تطوان، 1959 – 1979.

HOPKINS, F. F. P., *Letters from Barbary* 1575 - 1774, Oxford, 1982.

La VÉRONNE C. (de), *Documents inédits sur l'histoire du Maroc. Sources françaises*, t.1 et t. 2, Paris; t. 3 et t. 4, Tunis.

MEUNIER, D., *Le Consulat anglais à Tétouan sous Anthony Hatfield* (1727 1728), Tunis, 1981.

NANNINGUA, J.G., *Bronnen tot de Geschiednis van den Levanteschan Handel*, S'Gravenhage, 1964, 2 vol. (pour la période 1765 - 1826).

المستندات

ARANDA, Em (d'), *Relation de la captivité du sieur d'Aranda, jadis captif à Alger*, Bruxelles, 1662.

BEAUCLERK, G., A *Journey to Morocco in 1826*, Londres, 1828.

BRAITHWAITE, J.,*The History of the Revolutions in the Empire of Morocco upon the Death of the late Emperor Mulay Ismael..*, Londres, 1729, 581 p.

BUSNOT, père Dominique, *Histoire du règne de Moulay Ismaël, Roy du Maroc, Fès, Tafilalet, Souss..., Rouen*, 1714, 2 vol., 254 p. et 278 P.

DAN, Révérend Père P., *Histoire de Barbarie et des corsaires...*, Paris, 538 p., IV[e] partie, chapitre 4, p, 259, Tétouan.

Description de toutes les rades du royaume de Fès, Paris, 1682.

FAYE, J. (de la), *Relations de voyages pour la rédemption des captifs aux royaumes du Maroc et d'Alger pendant les années* 1723, 1724, 1725, Paris, 1726.

FRÉJUS, R., *Relation d'un voyage fait en 1666 en royaume de Maroc et de Fès*, Paris, 1670.

ابن أبي زرع، روض القرطاس، تحقيق ليقي بروفنصال، باريس، 1923.

JAMES, T., *The History of the Herculaen Straits*, Londres, 1771, 2 vol., vol. II, pp. 1-42.

MAIRAULT, A. M. (de), *Relations de ce qui s'est passé dans le royaume de Maroc depuis l'année 1727 jusqu'en 1773*, Paris, 1742.

مارمول كربخال، إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد زنيبر ومحمد الأخضر وأحمد التوفيق وأحمد بنجلون، الجزء الثاني، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، 1988 - 1989.

MOÜETTE, G., *Relation de la captivité de S. Moüette dans les royaumes de Fès et de Maroc*, Paris 1682, 372 p.

PELLOW, T.,*The History of the Long Captivity and Adventures of Thomas Pellow in South Barbary*, Londres, 1742, 388 p.

PIDOU DE SAINT-OLON, *Etat pérsent de l'Empire de Maroc*, Maroc,

1694.
POTOCKI, J., *Voyage dans l'Empire du Maroc, fait en l'année 1791*, Varsovie, 1959, éd. fr., Paris, 1980.

Relation de ce qui s'est passé dans les trois voyages que les religieux de l'ordre ont faits dans les états du royaume de Maroc en 1704, 1708, 1712, Paris, 1724.

RIPPERDA, *Memoirs of the Duke of Ripperda*, Londres, 1740.

SAINT AMAND, *Voyage du baron de Saint Amant, capitaine de vaisseau, ambassadeur du Roi Très chrétien vers le Roi de Maroc*, Lyon, 1683.

STEWART, *A Journey to Mequinez*, Londres, 1721.

WINDUS, J., *A Journey to Mequinez the residence of the present Emperor of Fes and Morocco on the occasion of Commandore Stewart's Embassy in the year 1721*, Londres, 1725, 251 P.

YRIARTE, J., *Les Tableaux de guerre*, Paris, 1870 (description de la guerre de 1859 - 1860).

الدراسات

ALBARRACIN NAVARRO, J., "*Vestido y adorno de la novia Tetuaní*", *Cuadernos de la Bibliotéca Española de Tetuán*, 21 - 22 (1980), pp. 67 - 89.

DEL-LERO, C., *La comunidad hispanomorisca de Tetuán*, Institut d'Etudes Ibériques et Ibéro-Américaines, Université de Bordeaux III, thèse 1983.

ERZINI, N., "A Moroccan Bird Pendant and a Necklace in the Victoria and Albert Museum", Al-Qantara XII, (1991), pp. 251-266.

"Zillig. The Titwan School", in éd.S.S. Damluji, *Zillig The Art of Moroccan Ceramics*, Reading, 1992, pp. 162-201.

GOZALBES BUSTO, G., *Los Moriscos en Marruecos*, Grenade, T. G. Arte, 1992.

Al-Mandari el granadino fundador de Tetuán, 2e éd. Grenade, T. G. Arte, 1993.

- *Estudios sobre Marruecos en la Edad Media*, Grenade, T. G. Arte, 1989.

"Huellas andalusis en el vestir de Marruecos", *Cuadernos de la Bibliotèca* Española de Tetuán, 16, (1977) pp. 67-110.

JOLY, A., "Industrie à Tétouan", *Archives marocaines*, (1906), pp. 196-329; AM, XI (1907), pp. 161-393; *AM* XV (1909), pp. 80-156; *AM*, XVIII (1911), pp. 187-256.

"Le siège de Tétouan par les tribus Djebala, 1903-1904, "Archives marocaines", III, (1905), pp. 266-300.

JOLY, A., XICLUNA, M., et MERCIER, L., "Tétouan", *Archives marocaines*, IV (1905), pp. 199-343, AM, V (1905), pp. 161-264, 311-430, AM, VII (1907), pp. 1-270.

LATHAM, J; D., "THE Reconstruction and Expansion of Tetuan: the period of Andalusian imigration", *Arabic and Islamic Studies en Honour of H. A. R. Gibb*, ed. G. Makdisi, Leiden, 1965, pp. 387-408.

جون لوي مييج، أنشطة تطوان البحرية والتجارية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ترجمة: مصطفى غطيس، مجلة كلية الآداب بتطوان، العدد 7، 1994، ص 61 - 108.

MONTALBAN Y DE MAZAS, C.L., *Las Mazmorras de Teruán, su limpieza y exploración*, Madrid, 1929.

OLAGNIER RIOTTO, M., "Influence turque dans la broderie de

Tétouan au Maroc", *First International Congress of Turkish Art*, (1959), Ankara, 1961, pp. 291-296.

PAVON MALDONADO, B., "Arte hispanomusulman en Ceuta y Tetuàn", Cuadernos de la Alhambra, 6, (1970), pp. 69-103.

رزوق (محمد)، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، 1989.

RUIZ DE CUEVAS, T., *Apuntes para la Historia de Tetuán*, Madrid, 2e éd., 1973.

السعود (عبد العزيز)، تطوان في أواخر القرن التاسع عشر، جوانب من الحياة الإجتماعية والإقتصادية والسياسية على ضوء التسرب الأوروبي، رسالة ديبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1992.

SEBASTIAN, S., "La arquitectura religiosa tetuanì", *Archivo español del arte*, 30, (1957), pp. 55-69.

SIEERRA OCHOA, A., "La mezquita del baja en Tetuán", *Cuadernos de la Bibliotèca Española de Tetuàn*, 16, (1977), pp. 47-58.

VALDERRAMA MARTINEZ, F., *Inscripciones árabes de Tetuán*, Madrid, 1975.

VILAR RAMIREZ, J. B., *La Judería de Tetuán* 1489 -1860, Murcia, 1969.

Tetuán en el resurgimiento judío contemporaneo (1850-1870). Aproximación a la Historia del judaísmo norteafricano, Caracas, 1985.

YEBBUR ODDI, A., *El gobierno de Tetuán por la familia an-Naqsis* (1597-1673), Tétouan, 1955.

Una ojeada sobre la Historia de Tetuán y sus familias oriundas de al-Andalus, Tétouan, 1948.

التسلسل الزمني

710م (القرن الأول للهجرة) فتح المسلمين لتطوان بعد فتحهم لسبتة.
949م (338 هـ): أجمع بنو محمد بن القاسم على هدم تطوان فهدموها.
1286م (685 هـ) بناء أول قصبة في تطوان.
1308م (708 هـ):أمر السلطان المريني أبو ثابت باختطاط المدينة.
1437م (840 هـ): أبناء عامل سبتة البرتغالي يهدمون تطوان.
1485/1484م (889/888 هـ): المهاجرون الأندلسيون يعيدون بناء تطوان.
1492م (897 هـ): استيلاء الإسبان على غرناطة.
1511م (910 هـ؟): وفاة أبي الحسن المنظري باني مدينة تطوان الحديثة.
1580م (988 هـ) بناء السور الثاني.
1597م (1006 هـ): المقدم النقسيس يحكم تطوان (13 سنة، من 1597م (1006 هـ) إلى 1610م (1019 هـ).
1629 (1039 هـ): مرسوم طرد الموريسكيين في عهد فيليب الثاني.
1629م (1039 هـ): أندري براط (André Prat) يعين قنصلا لفرنسا في تطوان، مع الإقامة في مرسيليا.
1638م (1048 هـ) وفاة عبد الله النقسيس.
1650م (1060 هـ): وجود شيلان Cheillan في تطوان كنائب قنصل مفوض.
1657/1656م (1067/1066هـ): الإتفاق الإنجليزي المغربي، وتعيين أول قنصل إنجليزي في شخص Nathaniel Luke
1672م ارتقاء مولاي إسماعيل العرش، والقضاء على عائلة النقسيس بصفة نهائية (1088 هـ).
1678/1677م (1089/1088 هـ): وباء الطاعون بتطوان.
1680م (1090 هـ): ولاية القائد علي بن عبد الله الريفي.
1685م (1096 هـ): بيير إسطيل (Pierre Estelle)، أول قنصل فرنسي محترف يقيم في تطوان.
1687 (1098 هـ): انقراض آل النقسيس الأخيرين.
1693 (1105 هـ) :إقامة سفارة بيدو دو سانت أولون (Pidou de Saint - Olon) في تطوان.

1694م (1106 هـ) بداية حصار مجاهدي تطوان ونواحيها لسبتة.
1701م (1112 هـ) القائد علي بن عبد الله الريفي يطالب بعزل إيسطيل (Estelle).
1713م (1125 هـ) وفاة القائد علي بن عبد الله، وولاية الباشا أحمد بن علي الريفي.
1714م (1126 هـ) تعيين القنصل الإنجليزي بالمر (Palmer).
1718م (1130 هـ) إغلاق رسمي لقنصلية فرنسا. هونوري موف (Honoré Meuve) أصبح قنصلا شبه رسمي.
1720م (1132 هـ) القائد أحمد بن علي الريفي يبني برج مرتيل.
1721م (1133 هـ) وقعت في تطوان معاهدة السلم والتجارة الإنجليزية المغربية.
1727م (1139 هـ) التخلي عن حصار سبتة.
1727م (1140 هـ) معركة "عيطة السبت بين التطوانيين وجيش القائد أحمد الريفي. إقامة بريت ويت (Braithewaite) في فصل الخريف من نفس السنة.
1757م (1164 هـ) بناء الحاج محمد لوقش لجامع ومدرسة لوقش.
1770م (1184 هـ) طرد القناصل والتجار الأروبيين من تطوان.
1778م (1192 هـ) السماح للتجار الأروبيين بالعودة إلى تطوان.
1789/1788م (1203/1202هـ): إقامة رومانيلي (Romanelli).
1790م (1204 هـ) نهب ملاح اليهود.
1791م (1205 هـ) إقامة جون بوطوكي (Jean Potocki) بتطوان (يوليوز).
1792 (1206 هـ) ولاية محمد بن عثمان المكناسي على تطوان.
1793م (1207 هـ) بناء الزاوية الريسونية.
1798م(1213هـ) إقامة وتموين عمارة نلسن (Nelson).
1800/1799م (1215/1214 هـ): وباء الطاعون بتطوان.
1807م (1223 هـ) بناء الجامع الأعظم بتطوان.
1808م (1223 هـ) بناء الملاح الجديد ليهود تطوان.
1821/1820م (1236 هـ): عصيان تطوان.
1827م (1243 هـ) زيارة السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام لتطوان، وبناء الأبراج.
1844م (1260هـ) قصف الأسطول الفرنسي لطنجة.
1845م (1261 هـ) سفارة القائد عبد القادر أشعاش إلى باريز.

1860م (6 فـبـراير)، (13 رجب 1276 هـ): اسـتـلاء الإسـبـان على تطوان واحتلالها.

1862م (5 ماي)(1279هـ): الجلاء عن تطوان.

1864م (1281هـ) فرض عزل القائد أشعاش على المخزن.

1889م (1306هـ) زيارة السلطان مولاي الحسن.

1895م (1313هـ) الكوليرا والمجاعة.

1903م (1321هـ) حصار وهجوم قبائل جبالة على تطوان.

1913م (1331هـ) احتلال الإسبان لتطوان.

فهرس الموضوعات

العنوان
ساحة 9 أبريل - تطوان
الهاتف 25 20 70 039
039 70 20 23
أنترنيت http//:www.cyber.net.ma-Asmir
البريد الإلكتروني Asmir@cyber.net.ma